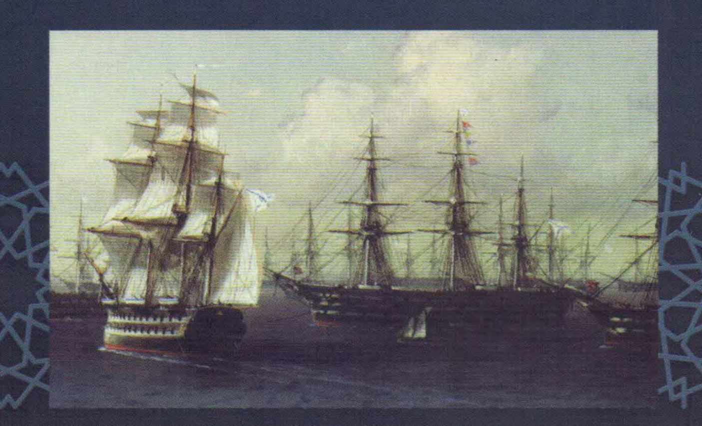


تراثنا ٥

سلطانة في نيويورك

أولى رحلات الأسطول العماني لأمريكا

عام ١٨٤٠م



تأليف
هرمان فردريك ايلتس

ترجمة
محمد أمين عبدالله



هذا الكتاب يعد تدويناً تاريخياً مهماً في تاريخ الملاحة البحرية العمانية ،حيث أسهب مؤلفه في سرد قصة أولى الرحلات العربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، على متن السفينة العمانية المجدة (سلطانة) بقيادة أحمد بن نعمان، وذلك في عام (1840م) وذلك لأهداف ودية وتجارية متبادلة بين البلدين.

ISBN 978-99969-0-469-1



سلطانة في نيويورك

هرمان فردريك أيلتس



الطبعة السادسة

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع المحلي : ٢٠١٥/٣٣

رقم الإيداع الدولي (ISBN) : ١-٤٦٩-٠-٩٩٩٦٩-٩٧٨

سلطنة عُمان - ص. ب: ٦٦٨ مسقط ، الرمز البريدي ١٠٠

هاتف : ٢٤٦٤١٣٢٥/ ٢٤٦٤١٣٠٠ فاكس : ٢٤٦٤١٣٣١

البريد الإلكتروني : info@mhc.gov.om

الموقع الإلكتروني : www.mhc.gov.om

سلطانة في نيويورك

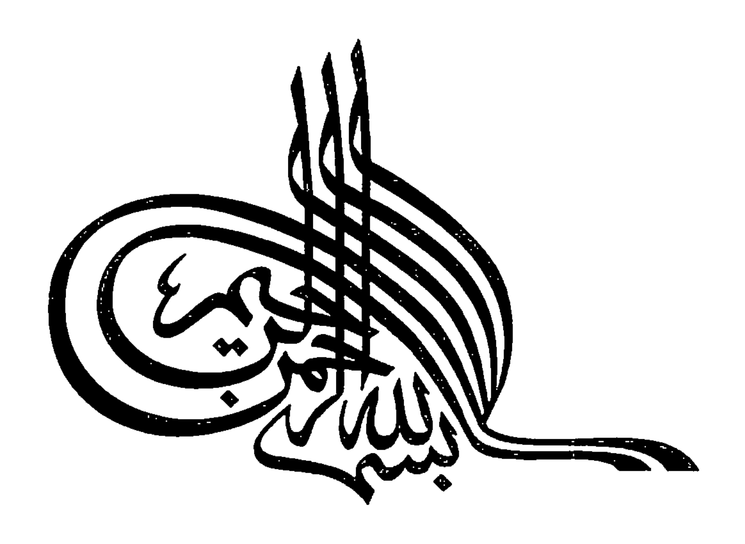
أولى رحلات الأسطول العماني لأمريكا
عام ١٨٤٠م

تأليف

هرمان فردريك أيلتس

ترجمة

محمد أمين عبدالله


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا البحث كتبه مستر هيرمان فريدريك ايلتس سفير الولايات المتحدة الأمريكية السابق في جمهورية مصر العربية.

وقد نشر أول مرة في المجلة الربع سنوية التي يصدرها معهد اسكس في مدينة سالم بولاية ماساشوستس في اكتوبر عام ١٩٦٢م ثم أعادت نشره بتصريح من المعهد ومن المؤلف سفارة سلطنة عُمان في واشنطن.

ولهذا البحث أهميته الخاصة التي جعلت السفارة العُمانية في واشنطن تختاره للنشر ، ثم كان لإدراك وزراة التراث والثقافة لأهميته أيضا ما دفعها إلى ترجمته ونشره باللغة العربية كي ينتفع به القارئ العربي ويتعرف من خلاله على حقائق تاريخية هامة عن عُمان وعن دورها في تحقيق العلاقات الوطيدة بين العالم العربي والعالم الجديد.

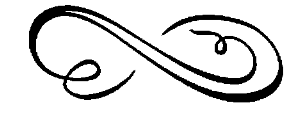
ولعل قارئ هذا الكتاب سواء في لغته الأصلية – الإنجليزية – أو في ترجمته العربية يلمس جوانب الأهمية لهذا الموضوع في مجريات التاريخ الحديث ذلك أن رحلة السفينة (سلطانة) إلى نيويورك في عام ١٨٤٠م، والمهمة التي كلف بها أحمد بن نعُمان كمبعوث خاص للسيد سعيد إلى الولايات المتحدة الأمريكية تعد أول صلة حقيقية بين العالم العربي وبين الولايات المتحدة الأمريكية بعد استقلالها وتكوينها كدولة كبرى بين دول العالم.

ولئن كانت مراكش قد اتصلت بالولايات المتحدة في نفس الوقت تقريبا إلا أن اتصال عُمان بأمريكا يعد مثلاً للإصرار العربي على الاضطلاع بالدور الفعال في العلاقات الدولية ، ويؤكد أن سلطنة عُمان بصفة خاصة كانت لها رؤية ثاقبة وإدراكات جغرافية وسياسية واسعة الأفق بحيث تشتمل على جميع أرجاء العالم القديم والحديث.



وأخـيرا فان الفضل في ذلك يعـود لوزارة الـتراث والثقافة في سلطنة عُمـان ولوزيرها الثاقب النظـر في هذا الاختيار الموفـق لمثل هذا الكتاب ممـا تقوم الوزارة بنقله الى القارئ العربي من حقائق تكون غائبة عنه وهي فخر لوطنه العربي الكبير.

ولقـد اقتضى نشر الترجمة العربية التحقق من نشر هوامش الأصل وهي في جملتها إشارات للمصادر التي استقى منها المؤلف معلوماته.





(١)

السفينة والرحلة

طلع الفجـر تدريجيا على مدينة نيويـورك في صبيحة الخميس ٣٠ من ابريـل عـام ١٨٤٠ ، وبعد انفلاق الصبـح بقليل ظهـرت في الأفق سفينة تتهـادى فوق سطح الماء مبتعدة قليلا لتفادي اللسان الرملي الذي يدور عند طرفه مصباح مضيء ليحدد مدخل مرفأ نيويورك ، وهنالك توقفت السفينة لتأخذ مرشدا ملاحيا تدخل إلى الميناء تحت قيادته.

وأخـذت السفينـة تبحر ببطء مدفوعة بريح خفيفـة من الجنوب الغربي دونمـا حاجـة إلى الأشرعة ، وبقيادة هـذا الملاح المرشـد ، أخذت تسير في المضيق المتعرج لتدخل منه إلى الخليج حيث ألقت مراسيها في منطقة الحجر الصحي وتوقفت انتظارا لإنهاء الإجراءات الرسمية لدخول المرفأ.

كانـت هذه السفينة هي السفينة سلطانـة أو السلطانة ذات حمولة تبلغ ٣٠٥ طنا ، وكانت السلطانة قد أبحرت من زنجبار منذ سبعة وثمانين يوما متجهـة إلى نيويـورك. ويتبين من النظـرة الأولى للسفينة أنهـا كانت سفينة متميزة ، إلا أنها من الناحية الفنية كانت أوروبية الطابع ، ذات سطح يرتفع عنـد المؤخـرة ، وجسمهـا مصنوع من خشـب التيـك ، ولم تكن ضخمة فخمة، فأعمدتهـا صغيرة قصيرة ورشيقة تستدق عند أطرافها ، وصواريها تزينهـا وتزيدها جمـالا، ومع ذلك فهـذه الصواري كبـيرة لا تتناسب مع حجم جسم السفينة.

ولقد لاحظ موظفو المينـاء أن قمرات السفينة كانت متواضعة وحسب ماقالوا ، إنها لا تختلف كثيرا عن قمرات أي سفينة أوروبية عادية إن لم تكن أسـوأ منها ، وكانت القمرات مطلية من الداخل باللون الأبيض أو العاجي. أما سطح السفينة فكان محاطاً بجوانب واقية ترتفع سبعة أقدام ، وبها أماكن



لأربعـة عشر مدفعا مما يدل على أنها كانت تستخدم أحيانا كسفينة حربية ، ولما كان وجودها في نيويورك مهمة سلمية من أجل الصداقة فلم تكن تحمل سوى أربعة مدافع فقط.

وحينمـا دخلت السلطانـة المينـاء كان غاطسها منخفضا تحـت الماء لما تحملـه من بضائع ثقيلة في بطنهـا ، ولذا كانت المظلـة الخشبية المقامة على سطحها بادية للعيان ، ويرى من تحتها فرسان يبدو عليهم الإنهاك من طول الرحلة ، وكانت علامات الإنهاك من الرحلة الطويلة تبدو في كل مكان من السفينة، فالأشرعة ممزقة حتى في أجزائها الرئيسية وكانت قد ركبت حديثا قبيل مغادرة السفينة ، فلم يزد عمرها عن خمسة شهور ، ولعل تمزقها يرجع أيضا إلى الإهمال فيها وطيها وهي مبللة بالماء مما أوصلها إلى تلك الحالة التي يتعذر معها استعمالها في البحر ثانية.

وكان علـى السفينة ستة وخمسون من الرجال الأشداء ، وكانت لحاهم مطلقة غـير مشذبة من أثر الشهور الطويلة في رحلـة بحرية متواضعة ليس فيها أي وسائل للراحة أو المتعة أو الترفيه.

وطيلـة الرحلـة كان من الطبيعي ألا يأكل هـؤلاء البحارة أكثر من وجبة واحدة في اليوم ، وكانت الوجبة تتكون أساسا من أرز بالكاري تكوم كمية كبـيرة منـه في إناء كبير تمتـد إليه جميع الأصابع في وقـت واحد ، ولم يكن اللحم يقدم إلا قليلا وفي أول الرحلة.

ويقـال أن الطعام كان يطبخ بماء مخزون آسن مليء بالطحالب والحشرات المتحللـة فيـه ، بل والفئـران الغارقة ، ولعل هذه الكائنـات الحية قد نفذت إلى تلك البراميل لإهمـال البحارة في إغلاقها ، ولعلها كانت تلجأ إلى هذه البراميل لأنها لا تجد ما يقيم أودها سوى الالتجاء إلى الماء العذب.

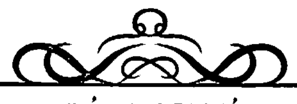


أمــا طعام الضبــاط على السفينة فــكان أكثر سخاء يشتمــل على طبقين كبيرين ، وإذا أتى وقت الطعام مدت سجادة كبيرة على ظهر المركب ووضع في وسطهــا الطعام وفي الأيام الأولى من الرحلة كان أحدهما يملأ إناء بلحم الضأن المطبوخ ، ثم أصبح يملأ بالأرز المخلوط بالكاري بعد أن نفذ اللحم، أمــا الطبق الثاني فــكان يملأ بالتمر والمانجو المملحــة والتوابل وغيرها، ويتربع ضباط السفينة حول الأطباق يلتمسون منها الطعام الشهي وكانوا لا يمدون إلى هذه الأطباق إلا أيديهم اليمنى بعد غسلها بالماء.

وكان يعقــب طعــام الضباط عــادة القهوة الساخنة من بــن مخا الأصلي الطازج الذي تفــوح نكهته قوية ، وتوزع عليهم في فناجين صغيرة وتدور عليهــم النرجيلة تنتقل من يــد إلى يد لتدخين الطباق ولمــا طال زمن الرحلة تعرضــت المــواد المخزونة للنقص والنفــاد وقلت معها كميــات الأرز التي كانت تملأ الصحون لكل من البحارة والضباط على حد سواء.

وفيمــا عدا اثنين مــن الفرنسيين اللذيــن كانا ضمن طاقــم السفينة كان الملاحون جميعا إما من عسكــر البحارة المسلمين الذين جلبوا من سواحل كونــكان ومالابار في غــرب الهند ، وأغلب هؤلاء من فقــراء الهنود الذين يبحثــون عن الأجور بأي وسيلة فيما عدا القليل منهم ، وأخذ معظمهم من بمباي حيث أدخلت السفينة للتصليح والإعداد لتلك الرحلة ، وهي رحلتها الأولى إلى المحيــط الأطلســي ، وقــد أتى بهم أحد متعهــدي السفن الهنود منتزعا إياهم من سفن أخرى وكان أغلبهم من الرجال الأشداء الغلاظ.

وكان سواد البشرة يغلب على نسبة كبيرة من بحارة السفينة والمساعدين، وتبدو على تقاطيعهم أنهم من أصل أفريقي ، وكثيرون منهم أيضا كانوا من رقيــق الضباط وقد أتوا بهم معهم على ظهر السفينة ليحصلوا لهم على أجر



عن عملهم ، وكان هؤلاء المساعدون يمثلون طبقة ثالثة على السفينة فكانت تلقى اهتماما أقل تبعا لحجم العمل الضئيل الذي يقومون به ، وكان طعامهم من بقايا الصحـون ، وكانت ملابسهم مصنوعة من قماش القطن الخشن ، وكان كل منهـم يحمل معه في الرحلة رداءين إلا أنهم قليلا ما كانوا يغيرون الرداء إلا إذا وصل إلى درجة بالغة من الإتساخ.

ولقـد لازم السفينة وبحارتها رائحة نفاذة متميزة لم تستطع ريح البحر المالـح أن تزيلهـا ، وكانت هذه الرائحـة تمثل مزيجا مـن رائحة القرنفل والصمغ والبن الصادرة من مخازن السفينة ، ورائحة القار الأسود الصادرة مـن المطبخ في أسفل السفينة فضـلا عن روائح هون المطبخ ودورات المياه البدائيـة التي كانت تختلط جميعا برائحة زيت جوز الهند النفاذة ، وكان البحـارة يدهنـون أجسامهم به كل يـوم سبت اعتقادا منهـم أنه يزيل داء الروماتـزم. وكان البـق والبراغيث تسرح في جميع أنحـاء السفينة ، ومن عليهـا ، حتى أن بعض البحـارة كانوا يقضون بعضا مـن أوقات فراغهم يتبادلون تنظيف بعضهم منها ، ومثلهم في ذلك مثل سائر البحارة وراكبي السفن في ذلك العصر.

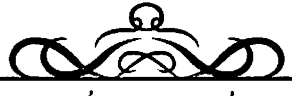
وفي بعضـ الأحيان كانت أوقات الفـراغ من العمل طويلة للغاية وكان أفراد طاقـم السفينة يحاولون القضاء على مـا يصيبهم من ملل بالاستغراق في نوم عميق لساعات طويلة ، أو القيام بأداء صلوات نوافل وقراءة الأدعية والتسبيـح وذكر أسماء الله الحسنى تكرارا علـى مسبحاتهم فإذا خيم الليل اختلـف أسلوب الحياة علـى ظهر السفينـة فالأفريقيون يتسلـون بالرقص العنيـف السريع الخطـوات على نغمات الطبـول القوية التـي اعتادوها في بلادهـم أو كان الجميع يستمـع منصتا إلى أحد العرب أو الهنود يشدو بنغم من الأنغام الوتيرة أو ينشد من غناء بلاده ما يردده الجميع معه.

وكان من أهم ما يشغل وقت الفراغ أيضا هو تبادل رواية القصص ، فيلقي البعض على أسماع الآخرين ، من بطولاتهم الشخصية وذكرياتهم في البحار وفي مواجهة العواصف ما قد يخرج من مجرد الرواية إلى الخيال القصصي الذي يعيد إلى الذاكرة قصص السندباد وأساطير الشرق التي طال ترديدها بصور مختلفة تثير انتباه السامعين وتمتعهم..

وقاد السفينة إلى نيويورك بحار إنجليزي يدعى وليام سليمان ، كان يعمل من قبل في البحرية الملكية وسبق له أن قاد الفرقاطة البحرية العُمانية المسماة البرنس ريجنت ، ومرت السفينة بمحطتها الأولى والوحيدة في سانت هيلانة حيث اشترى سليمان كميات كبيرة من الخمور لاستهلاكه الشخصي أثناء رحلة عبور الأطلسي ، وكان سليمان ملاحا ماهرا إلا أنه كان من مدمني الخمور ، وقد حكى أنه أخذ يشرب مما اشتراه من سانت هيلانه ، حتى بلغ أعلى درجات السكر في وقت كانت السفينة فيه تأخذ طريقها إلى أعالي البحار في أخطر مرحلة من مراحل الرحلة.

ظل سليمان ثملا مستلقيا في فراشه لا يقوى على الحركة أو التفكير لمدة ثمانية أيام بدأت في وقت كانت السفينة فيه قد قطعت مرحلة واحدة مما دعا إلى إلقاء ما بقي من الخمور في البحر ، ولولا أن أحد ضباط السفينة تذكر حديثا ما جرى أمامه أثناء رسو السفينة في سانت هيلانة لحدثت كارثة ولضلت السفينة طريقها الصحيح ، فعند رسو السفينة في تلك الميناء استمع ذلك الضابط العربي إلى حديث بين قبطانين أمريكيين يذكران أن خير طريق للوصول إلى نيويورك هو الاتجاه أولا إلى الشمال الغربي مباشرة.

قام هذا الضابط بتوجيه السفينة إلى ذلك الاتجاه اجتهادا بدون خبرة سابقة معتمدا على مشيئة الله وعونه ، وقد نجح في ذلك بفضل الله ، فلم تعترضهم في المرحلة الأولى من الرحلة أي مياه ضحلة أو جزر صخرية ،



وكانــت الريح متوسطة السرعة تهب في الاتجــاه المطلوب ، وظلت السفينة تحت قيادة هذا الضابط حتى أفاق سليمان من خمره.

والغريــب في الأمر أن سليمان هــذا لم يكن قبطاناً صارماً بقدر مهارته ، فقــد كان إذا أفــاق من الخمر يفقد أعصابه بسهولــة ، وكان إذا ما صاح في البحارة أحياناً لا يقابل إلا بالتجهم والغطرسة والإهمال من جانبهم ، ولعل الحالة السيئة التي وصلت إليها السفينة ترجع إلى ذلك.

وكان علــى السفينة ضابط يسمى محمــد عبدالله هو الضابط الأول وهو عربــي أسمر ذو قامة قصيرة ، كثيف شعر الذقــن ، تقاطيعه قوقازية دقيقة ، اتصــف بالكسل والتراخي ، ولقد كان متوعكا في أغلب الأحيان مما جعله قليــل الفائدة ، ولم يكن يتدخل كثيراً في تسيير أمور السفينة ، وكان الضابط الثــاني محمد جمعــة شاباً شديد السمرة ضخم الأنــف على وجهه علامات قبليــة مما ينم عــن أصله العربي الأفريقي المختلط ، ولكنــه يتميز بوجه باسم محبــوب لدى الجميع ولعل مظهره العام كان غير مقبول ، ولكن كان يخفي من وراء ذلك ذكاءاً طبيعياً ورغبة ملحة في أن يوسع أفق معارفه.

وكان يكمــل مجموعة الضباط العرب على السفينة ضابط عربي صغير لم يعرف اسمه في ذلك الوقت.

ومــن بين مــن كان على ظهــر السفينــة أوروبي آخــر كان يدعى جون البرتغالي ، كان سليمان قد اصطحبه معه ليكون طاهياً وخادماً على السفينة ولقد اتصف جون هذا بالدناءة والخسة والجشع فضلاً عن القذارة البادية في ملابسه وعاداته وكان لصاً خفيف اليد.

ولتكتمــل الصــورة التــي توضــح مظاهر العجــب في هــذه الرحلة أن السفينة كانت تحمل ضمن ركابها سيدتين إنجليزيتين إحداهما مسز روبرت نورثــورزي زوجة أحد التجار الإنجليز في مسقط ووصيفتها مسز شارلوت

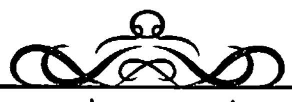


طومسون وكانتا قد غادرتا مسقط على ظهر السلطانة في طريق عودتهما إلى وطنهما في إنجلترا، وعند وصول السفينة إلى نيويورك وقفتا كغيرهما والإعياء والتعب باد عليهما ولكن نظراتهما إلى الميناء كانت تنم عن علامات البشر والسعادة بالوصول والشغف الشديد للهبوط من السفينة إلى نيويورك حيث كانتا ستقيمان أسبوعين وتغادران إلى لندن على سفينة بريطانية، ولعل السفر هذه المرة سيكون في ظروف أفضل مما لقيتاه على السلطانة.

وفي وسط هذه المجموعة المتنوعة من المسافرين على ظهر السفينة سلطانة كانت هناك شخصية كبيرة، رجل عربي بدين قصير، ذو لحية طويلة، يلقى الاحترام والتبجيل من جميع من في السفينة، أحمد بن نعُمان، وكانت بشرته قمحية وعيناه قوية النظرات، ولقد كان البعض يرون فيه رجلا عنيفاً صارماً بينما ينظر إليه الآخرون على انه رجل طيب رقيق القلب مرهف الحس.

وقف أحمد بينهم شامخاً مهاباً، وقد علت رأسه عمامة زاهية الألوان، ولف وسطه بحزام من قماش الكشمير من نفس قماش العمامة، وفوق سرواله وقميصه الأبيض الناصع لبس قفطاناً جميلاً أسود اللون، مطرزاً بخيوط ذهبية عند الأكتاف وعلى الصدر وكان شخصه بصفة عامة محاطاً بمظاهر الاحترام والمهابة.

ولشدة ما أدهش رجال الميناء عندما تقدم إليهم هذا الرجل العربي يحدثهم بإنجليزية واضحة، ويعلن لهم أنه هو رئيس هذه السفينة لا سليمان، وأن اسمه هو الذي يجب أن يظهر في سجلات الميناء، ففعلوا ما طلب وشطب اسم سليمان من السجلات وأحل محله اسم أحمد بن نعُمان ووظيفته الممثل الشخصي لسعيد بن سلطان حاكم مسقط وزنجبار وتوابعهما، وقد جاء في رحلة طويلة دار فيها حول نصف العالم تقريباً ممثلاً



لحاكـم مسقط وعُمان وزنجبار في بعثة تجارية ، ومهمة للتعبير عن الرغبة في الصداقة والسلام مع الولايات المتحدة.

رسـت سلطانة في الميناء ، وكانت ترفرف عليهـا الراية القرمزية الزاهية الخالية من أي زخرف ، وهي الراية الأميرية التي ترتفع على قطع الأسطول العُمـاني ، ومـا أن ألقت السلطانة مراسيها حتى اقتربـت منها سفينة حربية أمريكيـة كبـيرة ذات ٧٤ مدفعاً مـن أسطول نيوكارولينـا كانت راسية في حوضـ بروكلين الخاصـ بالبحريـة الأمريكية في ميناء نيويـورك ، وما إن أقتربـت ووقفـت بجانب السلطانـة حتى تقـدم منها مـلازم بحري حاد النظـرات واتجه إلى حيث وقـف أحمد ليعبر بالتحية وباسـم رئيسه العميد البحري جيمس رانشو مديـر حوض الميناء عن الترحيب بالسفينة العربية ، وقبلت التحية والترحيب بتقدير من رجال سلطانة.

أكملت السلطانة الإجـراءات الرسمية للرسو في الميناء خلال يومين من وصولهـا أي الثاني من مايـو سنة ١٨٤٠م واقتيـدت إلى رصيف الميناء إلى موقع عند نهاية طريق ركتور في النهر الشمالي وكانت السلطانة أول سفينة عربية تحمل أول بعثة رسمية تصل الى شواطئ أمريكا للزيارة والتجارة.





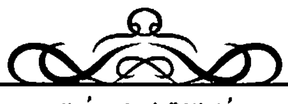
(٢)

العلاقات العُمانية الأمريكية

أدت رحلة أحمد بن نعُمان هذه إلى نمو التجارة التي كانت وليدة بين أمريكا وبلاد السيد سعيد، وكانت هذه التجارة قد بدأت من قبل منذ خمسة عشر عاماً على يد أحد التجار المستثمرين من بلدة سالم بولاية ماساشوستس، غير أن أمريكياً آخر هو أدموند روبرتسون من أهالي بورتسماث في ولاية نيوهامبشاير قد نجح في إرسائها على أسس قوية مستندة إلى إتفاقية موقعة.

ولكي لا نغفل الحقيقة لا بد لنا أن نذكر أن السفن الأمريكية كانت تصل إلى الموانئ الجنوبية للجزيرة العربية منذ زمن مبكر في أوائل القرن التاسع عشر، وكان وصولها إلى الشواطئ العربية يتم وهي في طريقها إلى الهند وجزر الهند الشرقية أو في طريق عودتها منها، ولكن رحلات السفن الأمريكية قد توقفت تماما منذ عام ١٨١٢م بقيام الحرب وإعلان الرئيس الأمريكي جيفرسون مقاطعة السفن الأمريكية للمحيط الهندي.

ولقد بدأت السفن الأمريكية تظهر ثانية في المحيط الهندي في العشرينات المبكرة من القرن التاسع عشر، وبدأت تظهر على شواطئ شرق أفريقيه أولاً بالرسو في موانئ موزمبيق ثم مدغشقر، وأخذت بعد ذلك تتجه تدريجياً نحو الشمال حيث وصلت أول سفينة أمريكية إلى زنجبار في يوليه سنة ١٨٢٥م، وكانت هذه السفينة الأولى التي وصلت بعد المقاطعة، هي السفينة المسماة لوريل بقيادة العميد بحري الكابتن بريانت، وكانت قادمة من ميناء سالم في ماساشوستس، ثم أعقبها في عام ١٨٢٦م أربع سفن أمريكية أخرى، وتضاعف عدد السفن الأمريكية التي ترسو في زنجبار في العام التالي ١٨٢٧م.



ويتفق الظهور المفاجئ للاهتمام الأمريكي بزنجبار وشرق أفريقيه بالصدفة مع زيادة اهتمام السيد سعيد بممتلكاته في ساحل أفريقيه وقد عرف السيد سعيد لدى المعاصرين من الأوروبيين والأمريكيين بلقب سلطان مسقط، وأطلق عليه البعض خطأ لقب إمام مسقط ، أما هو فكان يحمل اسم ولقب (سعيد حامي الضعفاء والفقراء في مسقط وتوابعها).

وكان السلطان سعيد المشهور قد ورث عرش البوسعيد منذ عام ١٨٠٤م، وقد استمر حكم السيد سعيد أكثر من نصف قرن من الزمان حتى عام ١٨٥٦م مما جعله أشهر أمير عربي حكم المنطقة.

امتدت أملاك السيد سعيد الشاسعة من رأس الحد إلى مقاطعة ظفار في جنوب شرق الجزيرة العربية ، ومن رأس جرادفوي إلى رأس دلجادو على طول ساحل شرق أفريقيه ، حيث امتدت أملاكه إلى أطراف النفوذ البرتغالي ، غير أن النفوذ الملكي البوسعيدي لم يكن كاملاً في كل الأنحاء ، فقد كان هناك تمرد وكانت هناك ثورات هنا وهناك تطبع الحياة السياسية في عهد السيد سعيد.

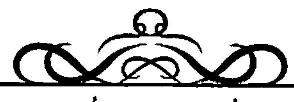
وبالإضافة إلى تلك المشكلات الداخلية المتمثلة في عمليات التمرد المحلية ، وجد السيد سعيد نفسه متورطاً في الصراع الفرنسي البريطاني للسيطرة على المحيط الهندي ، وهو الصراع الذي بدأ مع بداية الاضمحلال والضعف الذي أصاب الحكم البرتغالي منذ أوائل القرن الثامن عشر ، فقد اقتضت الحكمة أن يتعاون السيد سعيد مع بريطانيا التي نشطت لتحقيق هدفها المزدوج في حماية خطها البحري إلى الهند من جهة ومنع تجارة الرقيق من جهة أخرى.

ونتيجة لهذا النشاط أصبح النفوذ البريطاني محسوساً في كل الأراضي المطلة على المحيط الهندي وأدى ذلك إلى أن السيد سعيد وقع مع بريطانيا

معاهــدة لمنع تجارة الرقيق عــام ١٨٢٢م عرفت باسم معاهــدة مورسباي ، جاءت تعزيزا لمعاهدة سابقة كان قد وقعها سلفه حول نفس الأمر.

وبمجرد أن تولى السيد سعيد العرش بدأ يعمل على تثبيت سلطته وبسط نفوذه في جميع أنحاء المملكة الشاسعة ، وكان همه الأكبر في العشرين سنة الأولى من حكمه يتركز في ثلاثة أمور ، أولها إصلاح أمور عُمان الأصلية ، ثانيها صد الغزوات الخارجية ومواجهتهم في داخل الجزيرة العربية ، ثالثهما محاولة إثبات كيانه في وسط الحكام المتعددين في الخليج . وقد نجح في ذلك ولكــن كان نجاحه نجاحاً وقتياً، إذ سرعان مــا مرت حمى الاضطرابات في أنحــاء كثيرة من عُمــان ، واستمر يقاســي منها حتى آخر أيــام، ولئن اعتبر البعضــ جهوده مظهراً من مظاهر الفشل إلا أنها أخذت على أنها محاولات للقضــاء على القرصنة في الخليج مما أكسبه بعض العطف من جانب بريطانيا وساعــده ذلك كثيراً على تحقيق أهدافه في جهــات أخرى من البلاد التي لم تمتد إليها الثورات.

ومنــذ العشرينات الأولى من القرن التاســع عشر ، بدأ السيد سعيد يوجه اهتمامه نحو شرق أفريقيه حيث كانت الاضطرابات السياسية قد بدأت منذ وقــت طويل وتبلــورت دون أن تلقى رد فعل مباشر من السيد سعيد ، ولعل ذلــك التحول السريــع الذي وجه الاهتمام الجغــرافي للسيد سعيد إلى شرق أفريقيه هــو تصرف سيء من جانــب أحد الضبــاط البريطانيين هو الكابتن وليم أوين الذي أعلن عام ١٨٢٤م الحماية المؤقتة على ممباسة وهدد باتخاذ نفســ الموقف بالنسبة لجزيرة بمبا ، بحجــة استجابته لطلبات شيوخ المزاريع ولجوئهــم إليه للحمايــة ، وقد كان شيوخ المزاريع عشــيرة سائدة في ممباسة وبعضــ الجهات الأخرى من المملكة ، وقد أعلنــوا إنكارهم لأحقية السيد سعيد في تولي عرش عُمان.

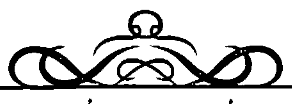


ولما لم يكن لدى أوين أي تفويض رسمي فقد سارعت الحكومة البريطانية ، حينما بدأت المواجهة مع السيد سعيد ، بسحب الإعلان ، أما بالنسبة للسيد سعيد فقد كانت حادثة أوين هذه درساً له ، على أن هناك فراغا في شرق أفريقيه سوف تملأه إحدى القوى الأوروبية إذا ما تركه هو.

كانت زنجبار وممباسة تعتبران مفتاحا شرق أفريقيه ، إذ تتميزان بموقعهما الدفاعي الآمن ، وكان يقوم على حكم زنجبار مفوض من أقارب السيد سعيد ، أما في ممباسة فقد بقى المزاريع على عنادهم ، وفشلت كل المفاوضات في تغيير وجهة نظرهم سلمياً ، وبناء على ذلك قام السيد سعيد بالتوجه على رأس أسطول كبير يحمل جيشاً ضخماً من مسقط إلى شرق أفريقيه في النصف الثاني من عام ١٨٢٧م.

وباستخدام المدفعية والخدعة الحربية عند الوصول إلى ممباسة استطاع إدخال حامية عسكرية إلي قلعة (فورت جيسوس) الحصينة التي تسيطر على المدينة. وبدا من أول وهلة أن التمرد أخمد وأن المهمة قد انتهت بنجاح، ولذا اتجه السيد سعيد بأسطوله إلى زنجبار المجاورة ووصلها في أواخر يناير ١٨٢٨م في أول زيارة له يقوم بها للجزيرة التي أصبحت فيما بعد عاصمته الثانية والمقر الرئيسي لإقامته.

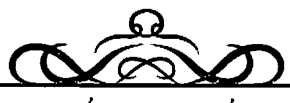
وكان أول ما واجه السيد سعيد عند وصوله إلى زنجبار لقاءه مع روبرتس الذي كان في حالة غضب شديد نتيجة لمعاملة السفينة الأميركية ماري آن، وهي احدى سفن نيوبدفورد الأمريكية ، وقد وصلت إلى زنجبار بقيادة الكابتن ستيفانس وعليها روبرتسون في محاولة لإقتناص فرصة تجارية جديدة بعد أن ضاعت عليها الفرصة في رحلتها إلى أمريكا الجنوبية ، وقد لقيت هذه السفينة بعض العقبات التي أقيمت في وجهها ، إذ أرغمت على دفع سبعة ونصف في المائة ضريبة مقابل الخمسة في المائة التي كان يدفعها



البريطانيون ، كما قام أحد كبار الموظفين الحكوميين بتفتيش بضائع السفينة بما وصفه أحد كبار الموظفين الحكوميين بأن فيه شيئاً من التعنت ، هذا فضلاً عن أن ما اضطرت إلى دفعه من عمولات ورسوم عالية لرسو السفينة أكثر بكثير مما كان قد اتفق عليه مسبقاً مما زاد الغضب والسخط ، ولم تكن هذه هي أول سفينة أمريكية تتعرض للمعاملة السيئة وتلقى الصعاب في زنجبار.

وما كاد السيد سعيد يستقر في قصر إمتوني الذي اتخذه مقرا له حتى وصله خطاب من روبرتس في ٢٧ يناير سنة ١٨٢٨م يتضمن احتجاجاً على المعاملة السيئة التي لاقاها هو وأهل بلده في الجزيرة ، وجاء في هذا الخطاب - الذي كتبه روبرتس - مقدما نفسه فيه إلى السيد سعيد على أنه القنصل الأمريكي - أن السفن الأمريكية التي قاست من كل تلك الصعاب غير مستعدة للعودة مرة أخرى إلى هنا، وعرض في الخطاب للعلاقات بين زنجبار وأمريكا موضحاً أن هذه العلاقات هي في صالح سلطان زنجبار وعُمان لأن أمريكا بخلاف إنجلترا وفرنسا - ليس لها أي خطط سياسية في بلاده - وأن اهتمام أمريكا يقتصر فقط على تنمية التجارة المشروعة مع زنجبار.

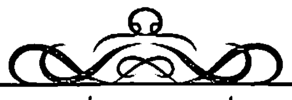
ولقد أعرب روبرتس في خطابه عن استعداده أن يحمل رسائل السيد سعيد إلى الولايات المتحدة على أن تتضمن هذه الرسائل الشروط التي على أساسها يمكن للتجارة الأمريكية أن تلقى المعاملة في المواني الخاضعة لحكم السيد سعيد ، واقترح روبرتس مشروع معاهدة تجارية للتفاوض على أساسه، وأضاف في خطابه وعداً بأنه إذا تم الاتفاق والموافقة على هذه المعاهدة فإن سفينة حرب أمريكية تأتي في العام التالي حاملة المعاهدة بعد أن تكون الولايات المتحدة قد صدقت عليها.



ولئن كان علم السيد سعيد بالولايــات المتحدة محدوداً للغاية وصورتها لديه غير واضحة إلا أن ما تقدم به روبرتس كان مثيراً للاهتمام لما قد يكون لــه من أثر في زيادة إيــرادات الخزانة التي كانت تعاني من ضغط المصروفات الشديدة عليها ، فلقد كان السيد سعيد يحتاج إلى أموال طائلة للإنفاق منها على أسطوله الضخــم ، ولدفع رواتب الجند ، وتسديد نفقات تسليحهم ، هذا فضلاً عن الأموال التي يحتاجها لتقديم الهدايا والمنح لأتباعه من الحكام المحليــين ، وما يحتاجه لمواجهة الصرف على الضيوف والزوار وغيرها من مستلزمات مظاهر الملك.

وكانــت إيرادات الخزانة في ذلك العهد تقتصــر على الضرائب الزراعية التــي قلما تعدت ٢٥٠ ألف كراون (ما يعــادل نحو ٢٤٩ ألف دولار) في العــام ، وكان السيد سعيد قد أصبح بالفعل أكثر المستثمرين في نطاق البلاد التي تتبعه ، وكان دائماً يبحث عن أسواق جديدة لتجارته ولتدعيم التجارة انفتح باب جديد هو الحاجــة الى مستلزمات الدفاع والحرب وبخاصة من المدافــع والقنابل والبارود وغيرهــا من الذخائر التي كان يــود السيد سعيد بــكل الوسائــل أن يحصل عليها ولكن عن طريق غــير طريق إنجلترا وبدون علمهــا ، وطبقاً لمــا عبر عنه السيد سعيــد نفسه كانت آمالــه لا تقتصر على إخضــاع سفن المتمردين فحســب ، بل كان يهدف إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير وهو طرد البرتغاليين من موزمبيق.

وبناء على الأوامر دفع روبرتس الرسوم فوراً ، ثم وافق السيد سعيد على مقابلتــه على ملأ من الناس بعد ذلك بأيــام ، وكان إصرار السيد سعيد على تسديد الرسوم أولاً لمحة ذكاء من حاكم يريد أن يبدي عدم الاكتراث بتجارة الولايــات المتحدة مع زنجبار ومسقط ، وعلى ذلــك فلما وجه السيد سعيد إلى روبرتس سؤالاً عن الأسباب التي جعلت الولايات المتحدة لا تدخل في



معاهدة تجارية معه مثلما فعلت حكومة الإنجليز، لقد أصبح اقتراح روبرتس الذي سبق تقديمه ، هو اقتراح من جانب السيد سعيد وتكليف منه لروبرتس أن يبلغ حكومة الولايات المتحدة عن استعداده لعقد إتفاقية تجارية، وأنه متحمس لذلك.

وحينما عاد روبرتس إلى الولايات المتحدة في السنة التالية طلب من صهره عضو مجلس الشيوخ الأمريكي عن ولاية نيوهامبشاير السناتور ليفي وودبري أن يساعده في تنفيذ خطته ، وأخذ وودبري على عاتقه أمر إثارة اهتمام زملائه التجار لذلك ، ولكن لم تنجح هذه المحاولات ، لأن مسقط وزنجبار لم تكونا معروفتين لمعظم الأمريكيين في ذلك العصر ، وكانت الردود التي تلقاها على هذه المحاولات أنه لا توجد في الكتب معلومات واضحة عن مسقط وزنجبار حتى يمكن الرجوع إليها ، وقد كان في إمكان رجال مدينة سالم أن يقدموا مثل هذه المعلومات ولكنهم آثروا الصمت حفظا للمعلومات لأنفسهم حتى لا يشجعوا المنافسين لهم للإتجار في تلك المناطق.

وعلى كل حال فإن فرص التجارة مع جزر الهند الشرقية والشرق الأقصى وكذلك اليابان كانت مشجعة للأمريكيين الذين كانوا ينتظرون لها مستقبلاً زاهراً ، غير أنه لم يكن هناك أي تفكير في ذلك من جانب الحكومة ذاتها حتى أواخر عام ١٨٣١م حينما أصبح وودبري سكرتيراً للبحرية الأمريكية وتبلورت لديه فكرة زيارة مجموعة صغيرة من سفن الأسطول الأمريكي للمحيط الهندي وانتهت الفكرة إلى قرار بإرسال بعثة إلى سيام والهند الصينية واليابان إذا أمكن ، كما أشير إلى القوى العربية في الجزيرة العربية والبحر الأحمر ضمن المناطق التي سيزورها الأسطول ، ونص على أن الهدف من إرسال البعثة هو العمل على عقد معاهدات أو اتفاقات تجارية مع تلك الدول.



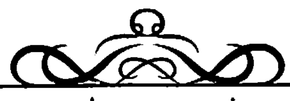
استخــدم وود يري نفوذه لتكليف صهره روبرتــس بالمهمة السرية لهذه البعثــة ، وتأكد بنفســه من إرسال خطابات اعتمــاده كمندوب لدى السيد سعيد ، وتضمنــت هذه الخطابات رسالة من الرئيســ الأمريكي جاكسون معبراً فيها عن رغبة الولايات المتحدة في عقد معاهدة مع زنجبار.

وأبحر روبرتس من الولايات المتحدة في مارس سنة ١٨٣٢م على ظهر السفينة بيكوك التي كان يقودها الكابتن ديفيد جيزنجر إلى المحيط الهندي، ولكــي لا تتدخل القوى المعادية وضع اسم روبرتــس في سجلات السفينة على أنه الكاتب الخاص لقائد السفينة.

وصلت السفينة بيكوك إلى مسقط في سبتمبر سنة ١٨٣٣م بعد أن أتمت المهــام الموكولــة إليها في المحيط الهندي ، وكان السيــد سعيد في ممباسة في ذلــك الوقت ، وكاد يتم الوصول إلى اتفاق على معاهدة الصداقة والتجارة التي عدلتها وزارة الدولة الأمريكية وزودت بها روبرتس قبل سفره بقليل.

تضمنت المعاهــدة ضمن نصوصها العديدة نصــاً على أن تكون تعريفة الاستــيراد الموحدة التي تسددها التجــارة الأمريكية في الموانى التابعة للسيد سعيــد خمسة في المائة فقط ، كمــا نصت المعاهدة علــى بعض الامتيازات الأخــرى للتجــار الأمريكيين ، وقام سعيد بن خلفان الــذي كان قبطانا في أسطول السيد سعيد بــدور المترجم ، وقدم على الفور النص العربي للوثيقة وفقا لما طلب إليه.

وبعــد مضي بعض الوقــت اكتشف أن هناك اختلافاً بــين النص العربي والنصــ الإنجليزي في كثير من أجزاء المعاهدة ، ولم تعرف حقيقة الأمر ، إن كان خطأ في الترجمة أم أمراً متعمداً ، ولقد كان هذا الخطأ متعلقاً بسوء فهم بعض ما يتعلق بمستقبل العلاقات في السنوات المقبلة.



ورغم وجـود هذا الخطأ فقد سارت الأمور سـيراً حسناً ، فعندما غادر روبرتس مسقط حمل معه خطاباً من السيد سعيد موجهاً إلى [فخامة رئيس الولايات المتحدة القوى المعظم الذي ملأ صيته العالم كله] ، واشتمل الخطاب علـى تعبير السيد سعيد عن سروره لنجاح نتائج المفاوضات التي انتهت إلى المعاهدة وتعهد بالتمسك بتنفيذ المعاهدة بدقة وإخلاص . ورفض روبرتس بـأدب شديد حمل الهدايا التـي أراد السيد سعيد إرسالهـا معه إلى الرئيس الأمريكي موضحاً أنه موظف تنفيذي ممنوع عليه تلقي أي نوع من الهدايا.

وبعـد أن صـدق على المعاهـدة في الولايات المتحـدة في ٣٠ يونيو سنة ١٨٣٤م أرسـل روبرتـس مرة أخـرى كمبعوث خاص على ظهـر السفينة بيكـوك تحت قيادة القبطان آدموند كندي لتبـادل وثائق التصديق بعد رحلة شاقـة جنحت فيها السفينة بيكـوك عند جزيرة مصيرة ، ووصلت السفينة إلى مسقط ، وتم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة في ٣٠ سبتمبر عام ١٨٣٥م، وتفضـل السيد سعيـد فطلب من روبرتـس تحديد التاريخ الـذي تصبح فيه المعاهـدة نافـذة المفعول ، وبعد تـردد من جانب روبرتـس اقترح ٣٠ يونيه ١٨٣٤م تاريخـاً لنفـاذ المعاهدة ، وهو تاريخ التصديـق عليها من الولايات المتحـدة ، فتفضل السيد سعيد بالموافقة على ذلك وبعدها أصبحت المعاهدة نافـذة المفعول ، وأرسـل روبرتس الخطابات إلى رؤسـاء الهيئات الأمريكية التـي تمتلـك السفن التجاريـة ، وإلى جميع السفن الأمريكيـة التي تصل إلى زنجبار في رحلاتها ، بما جاء في هذه المعاهدة للأخذ به ، وأرسلت خطابات مماثلة كذلك إلى جميع الرسميين المختصين في حكومة السيد سعيد.

ومع أن المعاهدة أصبحت نافذة المفعول منذ تاريخ سابق ، إلا أن السفن التي كانت قد سددت رسوماً أكبر من النسبة المقررة – فيما بين تاريخ النفاذ وتاريـخ التصديق – وعددها ستة عشـر سفينة لم تتقدم بأي طلب لرد فروق



هذه الرسوم ، بذلك بـدأ التنفيذ الفعلي للمعاهدة دون أي مشاكل وأصبح لأدمونـد روبرتس فضـل إقامة التجارة الأمريكية مـع مسقط وزنجبار على أسس ثابتة أفادت منها كل من الولايات المتحدة الأمريكية والأمة العربية في عُمـان وتوابعها ، ولسوء الحـظ لم تمهل المنية روبرتس حتى يرى نتائج عمله فقـد توفى في ١٢ يونيـه عام ١٨٣٦ في موناكو نتيجـة إصابته بدوسنتاريا مزمنة أصابته في سيام واستمرت معه أثناء تبادل وثائق التصديق في مسقط.

ولقد أصبحت التجارة الأمريكية مع زنجبار تبشر بالفعل بمستقبل زاهر ، فعلـى سبيل المثال بلغ جملة عدد السفن الأجنبية التي رست في ميناء زنجبار في الفـترة من سبتمـبر ١٨٣٢م إلى مايو ١٨٣٤م إحـدى وأربعين سفينة ، كان من بينهـا ٣٢ سفينة أمريكية بلغت جملة حمولتها ٥٤٩٧ طناً ، ومن بين هذه السفن الأمريكية عشرين سفينة أتت من ميناء سالم في ماساشوستس ، وثلاثـة من نيويورك وبوسطن والباقـي من موان أمريكية أخرى لم يسجل إسمها ، وكان ذلك في مقابل سبعة سفن بريطانية وسفينة واحدة من كل من فرنسا وأسبانيا أما عن ميناء مسقط فلم يكن له من التجارة الأمريكية مثل ما كان لزنجبار ، فقد دخلته سفينة أمريكية واحدة في مدة السنوات السبع التي بدأت من سنة ١٨٣٥م.

وطبقـا لنصوص المعاهدة الأمريكية عينـت أمريكا قنصلاً تجارياً لزنجبار ومسقط ، وكان ذلك القنصل هو ريتشارد بالمر ووترز من مدينة سالم بولاية ماساشوستس ، ولقد انضم إليه في العمـل ابتداءاً من شهر مارس ١٨٣٧م ممثـل المؤسسـة بروتـردام وشبرد وهو من مدينـة سالم أيضاً ، ثـم وصل إلى مسقط بعد ذلك في اكتوبر ١٨٣٨م هنري مارشال عضو غرفة المحاسبة في مؤسسة سكوفيل وبرتون التي تعمل في نيويورك ، ولكنه غادرها بعد شهور قلائـل لأسباب يغلب أن تكون شخصية محضة ، وقد اقترح عند مغادرته أن

يقـوم سعيد بن خلفان – الذي ترجم المعاهـدة – بتولي أعمال القنصلية في مسقـط إذا اقتضـى الأمر ، ولكن لم يعين سعيد بـن خلفان في وظيفة القائم بالأعمال للقنصلية الأمريكية في مسقط إلا عام ١٨٤٣م وفي الفترة السابقة لذلك كان ووترز يتولى المسئولية.

ولقـد كان ووترز طيلة هـذه المدة يتظاهر بالإفلاس ويعلن أمام السفن الأمريكيـة التي تحمل كميات كبـيرة من البضائع أنه في عسـرة مالية وكان يحـول تسعة أعشـار العمل إلى أخيه عن طريق جيرام ابـن سيواجي المتولي لشئـون الهند في زنجبار ، وأدى ذلك إلى أن الكثـير من التجار الأمريكيين المترددين على زنجبـار يتهمونه بأنه يقوم بتصرفـات احتكارية ، ويتقدمون ضده بشكاوى إلى وزارة الدولة ، غير أن كل الشكاوى التي أرسلت ضده لم تأت بنتيجة تذكر.

ومهمـا يكن من أمر فإن وجود ووترز في زنجبار قد ساعد على الإسراع في تنميـة التجارة مع الولايـات المتحدة ، فكانت السفـن الأمريكية تحمل إلى زنجبـار المنسوجـات القطنيـة والأواني الفخارية ، والبنـادق والبارود ، ومستلزمـات بناء السفن ، والساعـات والأحذية وغيرها من المصنوعات ، وكانت تعود إلى أمريكا من زنجبار محملة بالصمغ والقرنفل والعاج وغيرها.





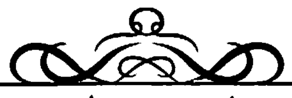
(٣)

فكرة الرحلة

كان لنمـو التجارة مع الولايـات المتحدة أثرها الطيـب في نفس السيد سعيـد باعتبـاره المستفيـد الأول من هـذه التجارة ، ولقد كانـت شخصية ووتـرز في أول الأمـر عقبة في سبيل نمو هذه التجـارة لما امتاز به ووترز من الصرامة وعدم قبول التنازلات ، على أنه أمكن فيما بعد أن يتم تفاهم متبادل بينه وبين السيد سعيد.

ولقـد اعتبر ووترز السيد سعيد هو أكبر عميـل للتجارة الأمريكية في التقاريـر التي قدمها ، ولئـن كانت هذه التقارير تفتقـر إلى الإحصائيات الدقيقـة إلى أن حجم مشتروات السيد سعيد كما يبدو قد تعدت الخمسة والثلاثين ألـف دولار في مارس عام ١٨٤٥م ، وهو الوقت الذي كانت التجـارة فيه قد بدأت تتناقـص ، ووصف مساعد ووترز هـذا المبلغ بأنه عملية صغـيرة بالنسبة للسلطان ، الذي كان يعتـبر تاجر الجملة الرئيسي في نطاق مملكته.

إن الطريقـة التي يتبعهـا السلطان في بيـع البضائع المستـوردة بسيطة للغاية ولكنهـا في نفس الوقت ذات فعالية كبيرة ، وهي كما وصفها أحد المراقبـين الأمريكيـين ، أن السيد سعيد يستدعي عدداً مـن التجار الهنود ويقسم بينهم مـا يستورده بكميات تتناسب مع حجـم النشاط التجاري لكل من هؤلاء التجـار ، وكانت تفرض عليهم البضائع بصرف النظر عن حالة الطلب على السلعة في السوق المحلية ، وكان هؤلاء التجار يسددون قيمـة البضاعة الأصلية مضافا إليها ٢٠ أو ٢٥ في المائة ، ولئن كانت هذه الطريقـة تبـدو الآن وكأن فيها شيئا من التحكـم ، إلا أنها كانت الطريقة السائدة في الشرق كله.



ولقـد امتلأ ذهـن السيد سعيـد بفكرة تنشيـط التجارة بإرسـال سفينة إلى الولايـات المتحـدة ، وسأل نفسه هـل يمكن أن ينمي إرسـال مثل هذه السفينـة الاتصـالات التجارية المباشرة لكي لا يستمـر الاعتماد في التجارة مـع الولايات المتحدة على السفن الأمريكية التـي تأتي إلى زنجبار بالبضاعة وتحمل منها البضاعة إلى أمريكا؟... وقد بدأت هذه التساؤلات التي أثارت الفكرة في ذهن السيد سعيد وساعد على ذلك أن أسطوله الذي يتكون من عشريـن سفينة مختلفة كان يجوب المحيط الهندي فقط بحثاً عن التجارة في أوقات السلم التي لا يستعمل فيها الأسطول لأغراض أخرى.

وكان في مناسبـة لقائـة الأول مع روبرتـس في يناير عام ١٨٢٨م قد اقـترح أن يرسـل إحدى الفرقاطـات التي كانت في المحيـط الهندي إلى الولايـات المتحـدة بمجـرد عودتها إلى مينـاء زنجبار لكـي تشتري بعض الذخائر والبضائع من أمريكا.

غـير أن السيد سعيـد كان متردداً في تنفيذ الاقـتراح ويرجع هذا التردد أساساً إلى عدم وجود القبطان المناسب لقيادة هذه الرحلة الطويلة ، ذلك أن معظم بحارة السيد سعيد لم يكونوا قد اجتازوا البحار فيما وراء رأس الرجاء الصالـح بجنوب أفريقيه ، ولذا كان تفكيره أن يقوم روبرتس نفسه بالسفر علـى السفينة ، غير أنها تأخـرت بصورة لم تكن متوقعـة ، وكان روبرتس يستعجـل العـودة إلى بلاده بعـد انتهاء مهمته ممـا أدى إلى صرف النظر عن الفكـرة مـن أساسها ، وبالإضافـة إلى ذلك فإن ما حـدث للسفينة بيكوك جعـل السيد سعيد يعطي وعداً لروبرتس بـأن يرسل سفنتين بدلاً من سفينة واحـدة ، إحداهما تحمل طاقم السفينة بيكـوك إلى وطنهم ، وتكون الثانية تحت تصرف روبرتس ليكمـل رحلته في المحيط الهندي والتي يتجه بعدها إلى الولايات المتحدة.



ولقد ظن البعض أن من وراء هذا الكرم الذي أبداه السيد سعيد غرضاً إقتصادياً هو أن تعود السفينتان محملتين بالبضائع ، غير أن هذه الخطط كلها فشلت إذ قد تم إصلاح السفينة بيكوك ، ووصلت سالمة إلى مسقط ثم تابعت رحلتها إلى بمباي لإجراء الإصلاحات اللازمة فيها.

تأجل تنفيذ المشروع مدة أطول بوصول ووترز إلى زنجبار ، ولقد قال البعض إن ووترز حاول أن يثني السيد سعيد عن إرسال إحدى سفنه إلى الولايات المتحدة لأن الصلة القوية بين ووترز وأصحاب المصالح التجارية في سالم جعلته لا يشجع على التعجيل بتنفيذ خطة السيد سعيد ، غير أنه لا يوجد دليل يثبت هذا الزعم.

وفي أبريل ١٨٣٩م وصلت إلى زنجبار السفينة ارشيا لدجراسي بقيادة الكابتن ساجاري من نيويورك ، وقد أدى وصول هذه السفينة إلى إحياء الفكرة ثانية ، لقد جاءت هذه السفينة من مؤسسة جديدة تكونت في نيويورك تحت اسم مؤسسة سكوفيل وبرتون وتحمل على ظهرها إدجار يوتسفورد كمدير للبضائع ، وكذلك المستشار المختص بشئون بمباي ويسمى ر.ستار باركر ، وكلاهما من هذه المؤسسة الجديدة.

وحتى وصول هذه السفينة لم تكن الشركات البحرية القائمة في نيويورك قد أبدت اهتماماً كبيراً بالتجارة مع زنجبار ومسقط ، إلا أن مؤسسة سكوفيل وبريتون قد بدأت توجه اهتماماً خاصاً إلى هذه المنطقة ويرجع ذلك إلى أن المساهمين الرئيسيين في هذه المؤسسة قد نجحوا في الحصول على معلومات كان قد جمعها أدموند روبرتس عن إمكانيات الإتجار مع بلاد السيد سعيد ، ولقد ساعد على ذلك أن هاريت ابنة روبرتس كانت قد تزوجت من عضو الكونجرس أماسا باركر الذي أصبح فيما بعد قاضي نيويورك ، وكان صديقاً لكل من سكوفيل وبريتون ، ومن خلال



هــذه الصلة استطاعــا التوصل إلى معلومات دقيقة مــن مذكرات روبرتس التفصيلية عــن مسقط وزنجبار . وكان روبرتس قد احتفظ بأصولها ضمن ممتلكاتــه الخاصة واعتــاد أن يرسل إلى وزارة الدولة صــوراً منها ولما مات انتقلت هذه الأوراق إلى أولاده.

ولقــد نجح بتسفورد في تسويق بضائع قيمتها ٢٠ ألف دولار ، مما دفعه إلى استحثــاث السيد سعيــد على فتح طريق مباشر للتجــارة بين بلاد السيد سعيــد ونيويــورك ، ولم يهتــم السيد سعيــد في أول الأمــر مدفوعاً بتكتيك خاصــ من جهة ولتجنب مواجهة ووترز من جهة أخرى ، رغم تلقيه هدية قدمــت له وسعد بها وتتكون من بندقية جديدة ذات ثمانية طلقات لم يسبق له رؤيتها من قبل.

علــى أنــه في اجتماع تم فيما بعد مع بتسفورد وافــق على أن يقيم تجارة مباشــرة مع نيويــورك ، وقد تصــرف سكوفيــل وبتسفورد بطريقــة مخالفة للطريقــة التــي تصرف بها تجار مدينــة سالم من قبل ، فقــد أمكنهما تشجيع الحاكم العربي على أن يرســل إحدى سفنه إلى الولايات المتحدة ونظرا لأن مؤسستهما لم يكن لديها السفن الكافية بحيث تخصص بعضها للتجارة مع شرق أفريقيه، جاء ترحيبهما بهذه الفكرة كعمل له فائدته.

وحينما غادرت السفينة ارشيبالد جراسي من زنجبار تجاه مسقط وبمباي كان السيــد سعيد قد اقتنــع تماما بفكرة إرسال إحــدى سفنه إلى نيويورك ، وأصــدر أوامره للسفينة سلطانة التي كانت آنــذاك في ممباي لتستعد وتتهيأ لهذه الرحلة.

كانــت السفينة (سلطانة) بين السفن العديــدة التي يمتلكها السيد سعيد هــي أحسنهــا وأنسبها لهــذه المغامرة ، وقــد سماها باســم زوجته الأولى السلطانة عزة بنت الأمير سيف الحاكم في شيراز الفارسية ، وكانت سلطانة



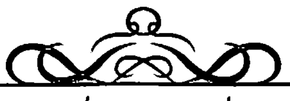
أيضاً تتميز بأنها أحدث وأسرع سفن الأسطول العُماني ، وكانت أيضاً مزودة بطاقم أشرعة ممتاز ، وقد وصفها القبطان الأمريكي الذي قادها بأن أشرعتها كانت تحتضن الريح وتوجه به السفينة إلى حيث تريد ، ووصفها هذ القبطان أيضاً بأنها كانت رطبة كعلبة المضخة ، وقد جعلتها هذه الصفات قادرة على أن تمخر عباب أي بحر وتتخطى بأشرعتها المنشورة أي عقبة تقابلها في البحار العليا.

ولقد كانت سلطانة فوق ذلك رمزاً لفخر السيد سعيد ، وعرفاناً للجميل من جانب الأمريكيين ، ذلك أنه بمجرد وصول أخبار جنوح السفينة بيكوك الأمريكية عند جزيرة مصيرة سنة ١٨٣٥م، سارع السيد سعيد بإصدار أوامره إلى سلطانة التي كانت في ذلك الوقت في ميناء مسقط أن تتجه من فورها إلى السفينة الأمريكية لإنقاذها.

وبناء على هذه الأوامر اتجهت السلطانة إلى جزيرة مصيرة حيث التقت بالسفينة بيكوك وكانت جانحة على بعد خمسين ميلاً من الجزيرة وكان قائدها قد استطاع أن يلقي أكثر ما عليها من بضائع في محاولة لإنقاذها من الغرق وجرتها سلطانة إلى ميناء مسقط في رحلة خطيرة ولكنها ناجحة.

وفي أوائل أغسطس عام ١٨٣٩م أعلن السيد سعيد عن نيته في أن يرسل (سلطانة) إلى الولايات المتحدة وأخبر ووترز بذلك ، وكان يعلم أن القنصل ووترز يأمل العودة إلى الولايات المتحدة على ظهر هذه السفينة ولقد قوبل هذا الخبر بكثير من الإمتنان ، ولكن السيد سعيد كان مدفوعاً إلى ذلك أيضاً بإدراكه عدم وجود قبطان مناسب ليقود السفينة إلى أمريكا.

حدث أن السيد سعيد قد تحدث مراراً إلى ووترز في أن يساعد في الحصول على أحد الزملاء من سفن البحرية الأمريكية التي تأتي إلى زنجبار ليقود السفينة التي ينوي إرسالها عبر المحيط الأطلسي إلى أمريكا ، وكان



ذلك قبيل سفـر السيد سعيد إلى مسقط في سبتمبر عام ١٨٣٩م، وحينذاك اعترف لـه ووترز بعدم قدرته علـى قيادة السفينة بنفسـه ، وإن كان يتوقع فقط أن يبحر عليها لولا أن موعد رحيلها لم يتحدد وبسبب المعلومات التي عرفهـا عن سلوك سليمان قائـد السفينة ، ثم كان وصول السفينة الكافاليير من سالم مما جعله يعجل بالإبحار إلى الوطن عليها في يناير سنة ١٨٤٠م.

ومـع ذلـك فإنه عند مغادرته زنجبـار كان يتوقع أن يكلفـه السيد سعيد بتـولي أعماله في الولايات المتحدة ، وأن يبعث معه بهدايا إلى إدارة الرئيس الأمريكي ، ولكن ذلك لم يتم على ما كان يهوي.

وحينما جاء دور اختيار المبعوث الذي سيمثله في الولايات المتحدة وجد السيـد سعيد صعوبة كبـيرة في الأمر ، إذ أنه كان يتـوق إلى أن تنجح البعثة في مهمتهـا وتثير اهتمام وإعجاب الأمريكيين لأقصى درجة ممكنة ، وعلى هذا فكان أول من اختاره هو أحد أصهاره ويسمى سيد حسن بن إبراهيم، الـذي لمس فيه أنه على استعداد لقبـول المهمة ، وكان على مستوى تعليمي راق إذ تلقـى تعليمه في الهند ، وكان يجيد اللغـة الإنجليزية ويتميز بالذكاء والجاذبية الشخصيـة وكان السيد حسن أيضاً ممن حاز إعجاب الأمريكيين والأوروبيين الذين يعرفونه ، وقد اعتبره ووترز أفضل من يقوم بهذه المهمة، ولكـن السيد حسن أشفق على نفسه مـن المغامرة وخشى من عدم نجاحها بالصـورة التـي يرتضيها ، فضلاً عـن عدم رغبته في تحمـل مشقات السفر الطويل غير المريح ، فجعله ذلك كله يدعي المرض ، فاضطر السيد سعيد إلى اللجوء إلى سكرتيره الخاص أحمد بن نعُمان ليقوم بالمهمة.

وأحمـد هذا هو ابن نعُمان بن محسن بن عبـدالله بن الكعبي البحراني ، ولد في البصرة عام ١٧٨٤م حيث تلقى تعليمه الإسلامي ، وكان أبوه عربي الأصـل من نسـل بني كعب حيـث استوطنوا ساحل الخليـج ، أما أمه فقد

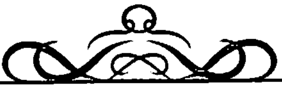


كانــت فارسية الأصل ، ولا يعرف شيء عن طفولته ، أو عن حياته الأولى ، ولكن يقال أنه بدأ حياته كغلام يخدم على ظهر سفينة ، وقد أظهر في عمله ذكاء وقــدرة نــادرة جعلته يترقى سريعــاً في أعمال البحريــة ، وهناك دلائل كثـيرة علــى أمانته وتقواه ، غير أن الكثير من حســاده كانوا يحاولون النيل منــه بأن يلصقوا به بعض التهم الكاذبة ، وفي بعض الأوقات كانوا يتهمونه بأنه ذو وجهين.

كان أحمد قد التحق بخدمة السيد سعيد في مسقط في أوائل العشرينيات ويقــال أنه سافــر إلى الصين وإلى مصر وإلى أوروبــا في مهمات عديدة ممثلاً لسيــده ، وكانت معظم هذه المهمــات هي مسئوليته عــن البضائع الخاصة بالسيد سعيد ، أو كمدير للسفن التجارية التي كان يسافر عليها ، وقد سافر الحــاج أحمــد إلى مكة لأداء فريضــة الحج في تاريخ غير معــروف بالدقة ، ولكنــه يحتمل أن يكــون في عام ١٨٢٤م وهي السنة التــي قام فيها السيد نفسه برحلة الحج الكبرى في حياته.

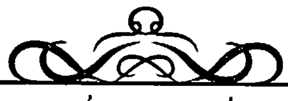
واستمر أحمد في عشر السنين التالية يكلف بمهمات تجارية خاصة بالسيد سعيــد وفي عام ١٨٣٥م أصبح سكرتيراً خاصــاً للسيد سعيد ، وظل يشغل هــذه الوظيفة حتى وفاة السلطــان ، وكان كثيراً ما يكلف بالأعمال التي لها اتصال مع ووترز ، وعلى الرغم من أن ووترز لم يكن يعبأ كثيراً بالحاج أحمد في عام ١٨٤٠م ، إلا أن السنين قد ساعدت على نمو الصداقة بينهما.

وبعد أن استقر الرأي على اختيار سلطانة للسفر إلى أمريكا ، وأن أحمد هــو المبعوث الذي سيقــوم بالمهمة ، بدأ الاستعداد للرحلــة وظلت السفينة راسيــة في مينــاء مسقــط مــن ١٦ إلى ٢٣ ديسمــبر سنــة ١٨٣٩م تشحن بالبضائــع، ثم أبحــرت إلى زنجبار لتأخــذ مزيداً من البضائــع ، وأصبحت مستعدة في أوائل فبراير ١٨٤٠م لتعبر المحيط الأطلسي.



وكان الميناء الوحيد الذي رست فيه قبل نيويورك هو ميناء سانت هيلانه حيث قام أحمد بزيارة رسمية لحاكمها ، وقدم له زجاجة من العطر الوطني كهدية له من السيد سعيد ، وكانت مدة السبعة والثمانين يوماً التي قضتها السفينة سلطانة في رحلتها إلى نيويورك ليست أكثر من التي كانت تقضيها السفن الأمريكية المماثلة ، إن لم تكن أقل منها ، فعلى سبيل المثال قضت السفينة كافالير التي سافر عليها ووترز مائة وستة عشر يوماً لتصل إلى مدينة سالم.





(٤)

سلطانة في نيويورك

كانـت نيويورك عام ١٨٤٠م حينما وصلتهـا سلطانة مدينة فتية بهيجة صاخبـة مليئة بالنشاط والحيوية ، تنمو نمواً سريعاً للغاية ، فقد تضاعف عدد سكانهـا في العشر السنوات السابقة حتى بلغ ٣٢٠ ألف نسمة ، وكان هذا النمو في ازدياد مضطرد ، وخلال شهر مايو الذي وصلت في أوائله السفينة سلطانة رست بالميناء المزدهر المستمر الأزدهار نحو ١٨٥ سفينة أخرى.

وكان من دواعي فخر نيويورك على غيرها من مدن العالم في ذلك الوقت صحافتهـا المتطورة ، فكانت تصدر بها عشـر جرائد يومية تمتلئ صفحاتها بملخصـات عن التطورات المحلية والشئون المدنيـة ، والمشاكل المحلية مثل مشكلة استقلال تكساس ومشكلة ثورات الهنود الحمر في فلوريدا وغيرها من مشكلات العصر التي كانت تشغل أذهان الناس ، وبمجرد وصول حقيبة البريد مع إحدى السفن الآتية من أوروبا كانت صفحات هذه الجرائد تمتلئ بأخبار منقولة عن صحف أوروبا.

وفي نفس الوقت كانت مدة رئاسة الرئيس مارتن فان يورين قد قاربت على الانتهاء ، وكانت أخبار انتخابات الرئاسة تحتل العناوين والصفحات الرئيسيـة ، ومن أهـم تلك الأخبار أخبار الاجتمـا ع الذي عقده الحزب الديمقراطـي في بلتيمور في الخامس من مايو ، أي بعد وصول أحمد بأيام قليلـة ، وتقرر فيه أن يرشح فان يورين للمرة الثانية في انتخابات الرئاسة، وبعدهـا بقليل رشح حـزب المحافظين وليم هـنري هاريسون ، وبذلك دخل كل مـن الديمقراطيين والمحافظين المعركـة الإنتخابية بكل قواهم ، وهكـذا كانت نيويورك في مطلع العقد الرابع مـن القرن التاسع عشر في قمة نشاطها وحيويتها.



ولقد كتبت جريدة الهيرالد الصباحية تصف نيويورك (ما أروع هذه المدينة ، إنها مليئة بالمفاجآت والمرح والغرائب وكل ما يثير الدهشة ، إن الأحداث المثيرة فيها لا تتوقف ، فكلما انتهى حدث مثير حل محله حدثان أو ثلاثة أو أكثر)..

وصل أحمد مبعوث السيد سعيد في هذه الظروف ، فأعطى وصوله أهالي نيويورك مادة جديدة للإثارة ، وفرصة جديدة للمشاهدة والمتابعة والتعليق ، وهيأ فرصاً أكبر لمن يريدون كتابة القصص ، ويذكر البعض أن أهالي نيويورك قد وجدوا في حضور أحمد إثارة أكثر من إثارة الراقص النمساوي وجولات الهولانديون بسراويلهم القصيرة في حفلات الرقص.

كان لخبر وصول أحمد وقعاً غريباً على أهالي نيويورك فاهتمت به صحيفة الهيرالد الصباحية المشهورة التي يرأس تحريرها جيمس جوردن بنيت، وكذلك جريدة صحافة نيويورك (نيويورك بريس) وقد عبرت الهيرالد الصباحية عن ذلك بقولها : (إنها مفاجأة مثيرة حقاً لنا نحن الأمريكيين). كما ذكرت الهيرالد عن أن السيد سعيد شخصية هامة لها صفة الطموح إلى جانب حبه للإستثمار وشبهته في ذلك بشخصية محمد علي في مصر.

على أن هذه المقارنة بين شخصية السيد سعيد وشخصية محمد علي مقارنة غير دقيقة ، وإن كان هناك أوجه شبه من بعيد ، ذلك أنه إذا دققنا النظر نجد أن كلاً من محمد علي والسيد سعيد قد حكما في زمن متعاصر تقريباً ، وقد تبادلا الرسائل حول مشاكلهم المشتركة.

وقد أدى الانتصار الذي أحرزه محمد علي إلى أن السيد سعيد غير من خططه بالنسبة لشرق إفريقيه ، ومع ذلك فقد ظهرت أزمة متصاعدة منذ عام ١٨٣٩م حينما انكشف ما لحاكم مصر الباشا من أطماع في جنوب الجزيرة العربية.



ولقـد نشرت جريـدة البوست المسائيـة أنباء عن المساعـدة التي قدمها السيـد سعيد للسفينة بيكـوك ، وأضافت أنه لا يوجد في العالم المسيحي من يتصـف بالأخلاقيات السامية التي أصبـح العالم ينظر إليها بإعجاب وتقدير مثـل ما ظهر في هـذه المساعدة من جانب حاكم مسقط ، كما ذكرت أيضاً جريـدة نيويـورك الأمريكية أنه يجب تقـديم كل التسهيـلات الممكنة من جانـب الحكومة للبعثة الأولى التي أرسلهـا الحاكم العربي للتجارة مع العالم الجديد ، ويجب أن تكون هذه التسهيلات لائقة بما قوبل به الأمريكيون من معاملة حسنة في بلاده وما غمروا به من كرم عربي بالغ.

وكانـت الاستجابـة لذلك في نيويـورك فعالة ، فبمجـرد التعرف على شخصيـة أحمـد سارع العميد البحـري رانشو بإبلاغ هيئـة نواب الحاكم في مجلـس نيويورك عن مركز المبعوث ، وعـن طبيعة المهمة التي أتى بها في هـذه الزيارة البالغة الأهميـة على ظهر السفينة سلطانـة، وقد أبدى رانشو في إبلاغـه لهيئة نواب الحاكم استعداده الشخصي للتعاون وتقديم التحيات اللازمة لمبعوث السيد سعيد.

وبنـاء على هـذه المعلومات اجتمعت هيئـة نواب الحاكـم المتفرعة من المجلـس العـام للمدينـة في ٤ مايو سنـة ١٨٨٠م لوضع صيغـة الترحيب بالمبعـوث العربـي ، وتضمن هذه الصيغـة اعتبار وصـول السفينة سلطانة خطـوة أولى لتدعيـم الصداقة والتجارة بـين البلدين ، وأضـاف البيان أنه نتيجـة للرغبـة المتبادلة في ذلك فـإن الصداقة والتجارة بـين البلدين سوف تتقدم بسرعة كبيرة ، وعبرت الهيئة في بيانها عن الترحيب بوصول السفينة وكذلك تحية لأحمد بن نعُمان قائد السفينة السلطانة.

واجتمعـت هيئة المساعديـن في نفس اليوم ، وهي هيئـة مشتركة من كل مـن المجلس العام للمدينة ونواب الحاكم وقررت تكوين لجنة استقبال



تضـم خمسة أعضاء من كل من الهيئـة والمجلس لتقديم التحية والترحيب باسم المدينة.

وبمجـرد أن شاعت أخبار وصول السفينـة العربية اندفع الكثير من أبناء نيويورك إلى رصيف الميناء حيث تجمهروا لإلقاء النظرة على السفينة العربية ومشاهـدة طاقمها العربي غـير المألوف لديهم ، ولم يرق للبحـارة أن تأتي النـاس لمشاهدتهم فتركوا ظهر السفينة ولجأوا إلى ممراتها للإختفاء من أوجه الناس الفضوليين.

وفي ٨ مايـو أدرك فريدريـك ليـذر خطـورة المضايقـات التي تحدث للبحـارة ، وبدأ ينظم عملية إبعاد الجماهير عن السفينة ، ولكنه اضطر إلى تعيين اثنين من رجال البوليس لمنع الأهالي من الصعود إلى السفينة ، وظلت السفينـة تحت حراسة البوليس حتى نقلت إلى حوض الأسطول الأمريكي في أواخر الشهر.

ولقـد اجتذب طاقـم السفينة أنظـار الناس ، فعندما نزلـوا إلى الشاطئ تمسكـوا بملابسهـم الوطنية الجذابة ، وقـد دفع الفضول بعض الأفراد إلى الاقـتراب منهم وتحسس لحاهم للتأكد مـن أنها طبيعية غير مستعارة ، ولقد عـبرت جريدة الهيرالـد الصباحية عن هذا الاهتمـام بقولها : (كان العرب ينظـرون حولهم ويبرمـون أشنابهم ويستغربون من نظـرات التعجب التي تبدو على وجوه الأمريكيين).

علـى أن هذه النظرات لم تكـن تحمل أي نوع من العـداوة أو السخرية المقصـودة بل كانت في أغلب الأحيان نوعاً من الإكرام ورغبة في التعارف بأعضاء طاقـم السفينة (سلطانـة) وكثيراً ما كان الأمريكيـين يغرون بعض البحارة العرب إلى تناول الشراب معهم في أركان المدينة ، ولما لم يكن أي من أفراد الطاقم قد اعتاد شرب المسكرات فإنه قد وقع كثير من حالات السكر

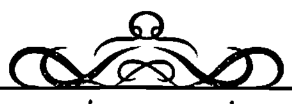


الخطـيرة ، وعلى سبيل المثـال حسب ما ذكرت جريـدة نيويورك سيجنال أن أحـد البحارة وصـل إلى السفينة وهو يترنح ويصيح ، فلما رآه أحد كبار السـن من ذوي اللحى البيضاء الطويلة أخذ يوبخه على المنكر الذي ارتكبه وحذره من مثل تلك التصرفات.

أمـا عن أحمد والضابطين الكبيرين في طاقمه فقـد كرموا تكريماً بالغاً، ففي يوم الأربعاء ١٣ مايو سار معهم أعضاء المجلس العام للمدينة في جولة لمشاهدة معالم نيويورك وضواحيها ، وزاروا أثناء هذه الجولة معهد العميان، ومركـز رعاية الصم والبكم ثم اتجـه الجميع إلى منزل وليامز الرئيس السابق للمجلـس في منطقة بلومنجدال التي تسمى حالياً مرتفعات مورننج سايد، وهناك تناولـوا الغداء ، وأعقب الغداء جولة قصـيرة في سكة حديد هارلم، وكانـت تجربة جديدة بالنسبة للسيد أحمـد وصاحبيه ، إذ لم يسبق لهما أن ركبا السكة الحديد.

وأخذتهم القوارب بعد ذلك إلى الإصلاحية ، وإلى الحديقة المفتوحة في جزيـرة بلا كويل لمشاهدة المتسكعين والمتعطلين ومدعي الفلسفة ، وأعقب ذلـك زيارة إلى بلفيو ، ثم تـوج الجولة عشاء رسمي في قاعة مجلس المدينة ، وكان أحمـد قد أنهك من طول التجوال ، فلوحظ أنه لم يتناول إلا قليلاً من الطعام والشراب المقدم له.

وكان بولـدنج سكرتير البحرية قد أصـدر أوامره المكتوبة في ٥ مايو إلى رينشـو بأن يولي كل الاهتمـام لقائد السفينة العُمانية التـي وصلت مؤخراً وضباطهـا ، وبناء على ذلك وجه رينشو الدعـوة إلى أحمد وضباطه للقيام بزيـارة رسمية لمرسـى وحوض الأسطـول الحربي وبناء علـى هذه الدعوة قامـت أربعة قوارب حربية في الساعة الحادية عشر من يوم الإثنين ١٨ مايو بعبـور النهر الشرقي حاملة الضيوف العرب إلى ميناء الأسطول الأمريكي ،



وكان كل قارب يحمل اثنى عشر بحاراً بملابسهم البيضاء والرسمية كحرس شرف، وكان على ظهر قارب القيادة العميد البحري يزهو في ملابسه الرسمية الزرقاء اللون وعلى كتفيه النجوم والأشرطة المشغولة بالخيوط الذهبية ونزل بخطى عسكرية متجهاً إلى قلعة جاردن حيث كانت المقابلة قد رتبت هناك.

نزل رينشو لتحية أحمد وضباطه ولتقديمهم إلى العمدة وإلى أعضاء مجلس مدينة بروكلين الذين كانوا قد أبدوا رغبتهم في المشاركة.

وكان العرب في ثيابهم الطويلة الخضراء اللون المقفلة بزراير حتى العنق، وقد لوحظ أن أحمد وعبدالله لم يكونا يلبسان الحذاء العسكري وكانا يسيران على أقدامهما ، أما جمعة فقد كان يلبس حذاءً جلديا من الأحذية الواردة إلى زنجبار من سالم ، ورغم أن أحمد كان قد أصيب بتورم وألم في قدميه بعد وصوله بأيام قليلة إلى أنه كان بادي الحيوية هو وضابطه الأول عبدالله ، بينما كان يبدو على جمعة شيء من الخجل والحياء في معاملاته.

وبعد تبادل التحية صعد الجمع إلى القوارب الأربعة وتحركت في صف واحد إلى حوض الميناء الحربي ، وبدخولهم الخليج المفتوح كانت السفينة كارولينا الشمالية في استقبالهم بالميناء ، فأطلقت ثلاثة عشر مدفعا ، تحية للزوار وكان رجالها على استعداد لهذا الاستقبال ، فلما اقتربت القوارب من جانب السفينة أوقفت مجاديفها ، وصعد الضيوف العرب والمضيفون في صف واحد إلى السفينة.

ولما كان من الواجب أن يمر أحمد في أنحاء السفينة في جولة تفتيشية ، نزل وهو يعرج إلى الأجزاء السفلى من السفينة حيث زار الوحدة العلاجية والمستشفى ، ثم توجه معه قائد السفينة إلى أحد قمراتها للراحة ، وكان في حقيقة الأمر يحتاج إلى مثل هذه الراحة.



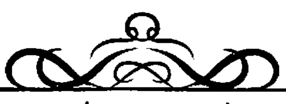
وبعـد نحو الساعـة ترك الجمع السفينـة وسط طلقات أخـرى من المدافع للتحيـة ، واتجهـوا إلى رصيف الميناء حيـث كان في استقبالهم العميد البحري سايلاس سترنجهام مساعد رانشو ، وأطلقت البارجة مدافعها أيضاً أداءاً للتحية، ثم أخذت ثلاثة طبول تدق بينما سار حرس شرف لتحية ممثل السيد سعيد.

وعقب تقـديم طاقم ضباط الميناء البحري الذيـن كانوا جميعاً في كامل زيهم الرسمي ، توجه الضيوف العرب مع الجمع لمشاهدة المنشآت الحربية، حيث شاهدوا سفينتين حربيتـين كبيرتين تحمل كل منهما ٧٤ مدفعاً ، هما السفينـة فرانكلين والسفينـة واشنطن ثم توجهوا لزيـارة مصنع الصواري ومصنـع الحبـال ثم أخـيراً زاروا قاعـة الاجتماعات العامة التـي علق على جدرانها صور الرؤساء السابقين.

وبعـد انتهاء زيارة الميناء اتجه الجميع إلى المنزل الجميل الذي يقطنه القائد البحـري رانشو حيث تقابـل أحمد وضباطه مع السيـدات ومع الضيوف الآخرين الذين وجهت إليهم الدعوة للحضور وعلى أنغام موسيقى البحرية قدم غذاء مليء بالأطعمة الشهية التي صحبتها وأعقبتها المشروبات المختلفة والحلوى والمثلجات.

وكان مـن بين من حضر هذه الوليمة جليرت ديفز حاكم جزيرة كونوي الـذي وجـه الدعـوة للضيـوف العـرب لزيـارة جزيرتـه ، وكان الضابط الأول والثـاني كلاهما يتكلمان بلغة إنجليزية ضعيفـة للغاية مما جعل جميع المحاولات لجرهم في الحديث لا تلاقي نجاحاً كبيراً.

أما أحمد ذاته فقد حظى بإعجاب الجميع لرقته وعذب حديثه فكل من تحدث إليه اعترف بذلك ، ولقى جمعة إعجاباً خاصاً لما يجمعه من سذاجة وذكاء معـا ، وسئـل أحمـد عن رأيه في المـرأة الأمريكيـة ومقارنتها بالمرأة العربية من حيث الجاذبية فتصدى للدفاع عن المرأة العربية بأدب ورقة.

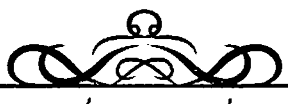


وحينما حلت صــلاة العصر استأذن أحمد ورفاقه ، واتخذوا لهم جانباً مــن البهو لأداء الصــلاة ، وفي نفس الوقت كانت الترتيبــات تجرى لمبيتهم تلــك الليلة في بيت العميــد ، ولذلك أمكن أن يستمــر الحفل إلى المساء في بهجــة وسرور ، وانتهى الحفل وانصرف الجميــع يحملون معهم الذكريات الجميلة لتلك الليلة الفريدة.

وبعــد أيام قلائل وصلت الدعوة إلى أحمــد وضباطه من النائب فيسك رئيس سكة حديد لونج أيلاند للسفر بالقطار إلى أخر الخط الحديد الممتد إلى مدينــة هكسفيل وقد طلب العمدة فورمــان وأعضاء هيئة بروكلين والعميد رينشو وبعض رجال الصحافة وغيرهم ، وبدأت الرحلة صبيحة السبت ٢٣ مايو حيث أخذ الضيوف العرب عربة تجرها الخيول إلى محطة السكة الحديد في كلينتــون بجزيرة لونج أيلاند ، مارين بشــوارع الأطلسي إلى بروكلين ، وكان بصحبتهــم العميد رانشو والمستر جورج باركلاي الوسيط الإنجليزي المصاحب لأحمد.

وصل الجمع إلى محطة السكة الحديد يتوسطهم أحمد في عباءته المفتوحة حيــث كان هناك حشــد كبير من السيــدات اللاتي أتين لمشاهــدة الضيف العربــي ، وسير قطار خاص لهذه الرحلة إضافة إلى القطارين العاديين الذين يسيران بإنتظام كل يوم وكان هذا القطار الإضافي الخاص في انتظار الضيف وصحبــه ، كانت قاطرته قد صنعت في بالدوين وتسير بأربع عجلات ولها مدخنــة ضخمــة تكاد تكون في نفســ حجم غلاية القاطــرة ، ومن خلف القاطرة خزان للمياه وخشب الوقود موضوعات على عربة مسطحة ملحقة بالقاطرة ، وخلف ذلك عربات الركاب المطلية باللون الأصفر الفاتح.

بمجرد أن ظهر الضيوف العرب وشاهدوا الجمع الكبير انحنوا تحية لهذا الجمع واتجهوا إلى العربة الأولى وما أن صعد الجميع إلى عربات القطار حتى



بدأ رحلته التي تبلغ ٢٨ ميلاً ليقطعها في ساعتين حيث سار القطار تدريجياً بضجته وصفاراته المعهودة وظل كذلك إلى أن بلغ سرعته القصوى التي تزيد قليلاً عن عشرة أميال في الساعة.

كان خبر الرحلة قد وصل إلى جميع الأماكن على طول خط السكة الحديدية ، فخرج المزارعون من كل صوب واصطفوا على طول الخط منتظرين مرور القطار بأعناق مشرئبة ليلقوا نظرات على الضيوف العرب، وعند مدينة جامايكا الصغيرة التي وصلها القطار قبيل الظهر ، كان هناك جمع كبير من الناس اخترقه أحمد وصاحباه الضابطان وسط ضجة كبيرة إلى فندق المدينة حيث أقيم حفل استقبال على شرفهم ، ثم ساروا عبر شوارع القرية الصغيرة إلى مزرعة دبيستر أوجدن التي أعجب أحمد كثيراً باتساع رقعتها.

وفي أثناء زيارة المزرعة قدم أحد المزارعين باقة من الزهور إلى الضابط الأول عبدالله ، وكان من قبل قد تلقى باقة أخرى من الزهور من إحدى السيدات عند الهبوط من القطار ، وحينما طلب منه رانشو على سبيل المزاح أن يلقي بهدية الورد القديمة لم يرض عبدالله عن ذلك ، بل ضمها إلى صدره بدلاً من إلقائها ، وقد أعجب الجميع بهذا التصرف.

وبعد أن غادر القطار قرية جامايكا بقليل توقف ثانية وهنا قال رانشو لأحمد ورفاقه : (لقد توقفنا لنسقي الحصان) ، فضحك أحمد استغراباً ولكن رانشو أخذ يشرح له حاجة غلاية القاطرة إلى الماء.

وقبيل أن يصل القطار إلى هايكفيل بميل واحد وقف القطار ثانية ودعى أحمد صاحباه بصحبة نائب الحاكم فيسك لتفقد القاطرة وصعدوا إلى كابينة السائق كي يشاهدوا كيف تعمل تلك القاطرة الكبيرة ، ولكنهم لم يحتملوا الحرارة الشديدة فيها فخرجوا إلى جانب الخط الحديدي ليروا

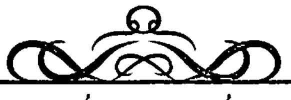


عرضـاً لسير القطـار وسرعته ، وحينئـذ سأل رانشو : هـل يمكن لخيولكم أن تجـري بهذه السرعة فأجابـه أحمد بغمزة من عينيه (نعـم .. تستطيع) ، وصمت برهة ثم أضاف (لمدة دقيقة او دقيقتين).

وعنـد الوصول إلى هايكفيل كان في الانتظار جمع حاشد آخر خرجوا لمشاهـدة الضيوف العرب والترحيب بهم ، وكانـت قد مدت مائدة كبيرة حافلـة في الفندق المركزي الكبـير (سترال جراندأوتيـل) أقامها جاكسون لتتسـع للجميع ، ولئـن كان أحمد وأصحابه قد ساءهـم وجود الخمور إلا أنهم استمتعـوا بطعام لذيذ ، كما استمتعوا بصحبـة طيبة ، وكان سرورهـم واضحاً ، ولكنهـم أظهروه في رزانة وذكاء حسب ما ذكرت صحيفة لونج آيلانـد ستار ، وانتهى الحفل بـأن شرب الجميع نخب الضيف العربي أحمد ورفاقـه ، ووعد المضيف أحمد بـأن يعطيه نموذجاً للقطـار ليأخذه معه إلى بلاده في رحلة العودة.

وفي رحلـة العـودة توقف القطار قليـلاً عند جامايكا ثانيـة في الساعة الخامسة حيث قدم عصير الليمون وواصل القطار رحلة العودة إلى بروكلين.

كانت الرحلـة ناجحة وكان اليوم بهيجاً بالنسبة لأحمد ورفاقه ، الذين عـادوا محملـين بباقات الزهـور ، ولقد نشـرت الهيرالد تعليقـاً على زيارة الضيوف العرب معلقة على ما أحدثته من اهتمام شديد فقالت : أثار العرب منذ أن جاءوا إلى هذه البلاد الكثير من الاهتمام والعطف ، وقد شاهدوا كل شـيء وزاروا أماكن كثيرة غمرتهم بمختلف أنواع الهدايا ، على أن ما رأوه لا يثيرهم لدرجة الدهشة إذ يبدو أن من طبيعتهـم ألا يثير دهشتهم شيء ، غير أنهـم قد أبدوا الرضاء على ما لاقوه من اهتمام ، وكانوا دائماً على استعداد للتحدث وهم باسمون ، وأعينهم ناظرة إلى كل شيء باهتمام.



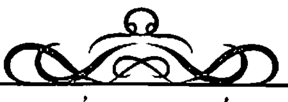
كان العميـد البحـري مستر بلينـج في مقابلة في نور فلـك مع سكرتير الدولة بولدنج ، وكان قد تلقى من مستر بلينج خطاباً فيه تعبير عن الأمل في أن تـرد الولايات المتحدة الجميل الذي قدمـه السيد سعيد عن طريق تكريم مبعوثه وضباطه على ظهر السفينة سلطانة.

ولقد أثارت الحالة السيئة للسفينة (سلطانة) عند وصولها فكرة رد جميل السيد سعيد الذي قـدم من قبل مساعدة في السفينة بيكوك وكان ذلك عن طريق فكرة ضـرورة إصلاح (سلطانة) إصلاحاً شامـلاً على نفقة حكومة الولايـات المتحدة ، وعليه ففي ١٩ مايـو طلب بولدنج سكرتير البحرية من رانشو أن يزوده بتقدير التكاليف اللازمة لإجراء الإصلاح الشامل للسفينة العربية سلطانة.

قـدم رانشو التقديـر المطلوب ولكنـه كان يرى أن مـن الأفضل أن يتم إصـلاح السفينـة إصلاحاً شامـلاً في حوض البحريـة الأمريكية ، ولذلك طلب مع تقديره أن يعطى التصريح اللازم ليأخذ السفينة إلى حوض البحرية لهذا الغرض ، وفعلاً أعطى التصريح وقامت السفينة البخارية ويف بسحب سلطانة إلى حوض البحرية.

وبدخول (سلطانـة) إلى حوض البحرية أصبح أحمـد وضباطه ضيوفاً علـى الكابتن راتشو ، بينما أنزل طاقم السفينة على ظهر سفينة عادية رأسية في الميناء ، وفي خـلال الشهرين اللذين قضتهما السفينة في حوض البحرية كان العمال يؤجرون للقيام بالإصلاحات اللازمة في سلطانة لتواصل رحلة العـودة إلى وطنهـا وكان أفـراد طاقمهـا يشاركون في العمل بمهـارة فائقة أثارت الإعجاب الشديد.

لقـد أعيد طلاء السفينـة بعد أن أصلحت جدرانهـا وقشرتها وغطاؤها وقد رممت الثقوب وجددت صواريها وقواربها وأضيف لها حوض للمياه



وبالوعـة ومرحاضـ ، وعملـت الترتيبات أيضـاً لإلحاق قـارب نجاة بها ، وتكلفت هذه الاصلاحات نحو خمسة آلاف دولار ، وقد طالب القبطان الـذي قـاد السفينة إلى زنجبار بمبلغ آخر من المال نظـير إصلاح تم أثناء رحلة العودة ، وإن لم يعثر على ما يثبت هذا ، فقد ثبت فيما بعد أن تقدير التكاليف الخاصـ بالإصلاح كانت أقل بكثير مما كانت تحتاجه السفينة ، ومن ثم فإن بعضـ الأشيـاء قد تركت دون إتمام إصلاحهـا ، أو أصلحت على وجه غير كامـل على أن السجلات البحرية تثبت أن كل ما كانت تحتاجه السفينة من جهد ومال لإعادتها لحالة الصلاحية قد بذلت إلى أقصى الحدود.

كانت لإقامة أحمد على الجانب الآخر من النهر في منطقة ميناء البحرية الأمريكيـة فرصة نادرة لإبعاده عن أنظار الجمهور والأضواء المسلطة عليه، فلـم يغادر أحمد رفاقه والمكان إلا مرتـين أولاهما لحضور حفل الإستقبال الذي أقامه حاكم نيويورك وليام ستيوارد في ٣ يونيه والثانية لمقابلة ريتشارد جونسون نائب الرئيس الامريكي.

وفي مناسبـة الحفـل الذي أقامه ستيـوارد تقابل أحمد مـع فيليب هون عمدة نيويورك السابق الذي وجد في شخصية أحمد ما يستحق الإعجاب وعـثر على ذلك في مذكرات هون الشخصيـة في حين لم يعثر في مذكرات أحمد أي شيء يذكر عن هون.

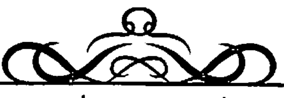
وقرب نهاية يونيه كتبت جريدة الهيرالد : لقد بدت على أحمد علامات الارتيـاح والرضـى ، إذ كان يجلس لمراقبة ما يجـري في حوض الأسطول وهو يمشط ذقنه ويؤدي صلواته صبحاً وظهراً وعصراً ومساءاً وليلاً ، ويرتاح وقت الظهيرة كل يوم وفي أثناء إقامته هناك اتخذ مجلسه أمام الرسام المشهور موني ، ليرسم له الصورة المشهورة التي اشتراها فيما بعد مجلس مدينة نيويورك بمبلغ ٥٠٠ دولار وذلك بعد مغادرة السفينة سلطانة نيويورك بأيام قليلة.

ولقد كانت هناك احتمالات عديدة عن قيام أحمد برحلات خارج نيويورك ففي ١٧ مايو اجتمع مجلس مساعدي الحكام وأخذت الأصوات على موضوع تعيين بعثة رسمية من ثلاثة أشخاص لتقوم بتقديم أحمد رسمياً إلى حكومة الولايات المتحدة ، وفي أواخر مايو نشرت الهيرالد أنه من المنتظر أن يقوم أحمد بزيارة الرئيس الأمريكي في واشنطن ، ولكن لم يحدث شيء من هذا فلم يكن أحمد يحمل أي خطابات تفويض رسمية ولم يطلب أي مقابلة شخصية مع الرئيس الأمريكي ، بل إن مهمته كانت مهمة عمل تجارية مع ميناء ومدينة نيويورك.

وبالإضافة إلى ذلك فقد وجد أعضاء مجلس مدينة نيويورك عدم وجود أي ضرورة لإقتراح مثل هذه الزيارة ، خاصة وأن فان يورين كان مشغولاً في ذلك الوقت بحملته الانتخابية لإعادة إنتخابه للرئاسة ، وفضلاً عن ذلك فان المناقشات العديدة التي جرت في الكونجرس حول ما أشيع عن الهدايا الملكية كانت قد أغضبت الإدارة وجعلتها في موقف يعارض ترتيب أي نوع من الزيارات .

وألغيت أيضا الزيارة التي كان مزمعاً القيام بها إلى مدينة سالم في ماساشوستس لأن كل المحاولات لتنفيذها قد فشلت ، والحقيقة أنه لم يكن يعرف على وجه الدقة عما إذا كان القنصل ووترز الذي كان يقضي إجازته في نيويورك في ذلك الوقت كان على صلة بالمبعوث العربي أم لا ، ولما لم تكن هنا أية أخبار عن أي اتصالات من هذا النوع ، فإن ما أمكن تخمينه هو أن ووترز كان في ذلك الوقت في شغل شاغل لتغيير شركائه في العمل وإيجاد شركاء جدد ، مما يجعل أحمد ينظر إليه بشيء من المرارة.

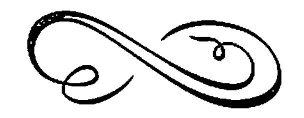
وهنا أيضاً - في مثل هذه الظروف - يصبح من غير اللائق على أحمد أن يقوم بنفسه بزيارة ووترز وبخاصة إذا أضفنا الصلات الشخصية السابقة

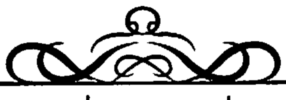


إلى الأمـر . ولعل ووترز قد أغضبه أن يستعمل أحمد إحدى المؤسسات في نيويـورك - خلاف المؤسسـة التي يعمل بها ووترز - لتـولي أعمال السيد سعيد هناك بينما كان المتوقع لما سبق أن ذكرنا أن يتولاها القنصل بنفسه كما كانت النية مبيتة من قبل.

ومهما كان الحال فإن الصداقـة الشخصية بين الرجلين لم تنقطع بسبب هـذا الموقـف في نيويورك بـل إنها استمـرت قائمة وتوطـدت حينما عاد الرجلان إلى زنجبار.

ومـن الأمور الهامة التي يجـب ذكرها ، أن الترف قـد استنزف أموالاً طائلـة وأن كشف حساب أحمد يبـين أنه دفع بعض النقـود مقدماً لبعض الضبـاط لتخصم من مرتباتهم البسيطة على أنه مما يدعو إلى الارتياح هو أن أحد المقربين إلى أحمد وهو ضابطه الثاني محمد جمعه قد أظهر أثناء زياراته العديـدة اهتمامـاً كبيراً بتطوير نفســه ، الأمر الذي لاحظتـه زوجة العميد البحـري الذكيـة ، فأمدته بالكتب وكانت تقضي معـه أوقاتاً طويلة تدرس له ، وقـد أظهر تقدماً سريعاً حتى أنه في الوقت الذي غادرت فيه (سلطانة) ميناء نيويورك كان جمعة يقرأ الإنجليزية بطلاقة ويكتبها بخط واضح.





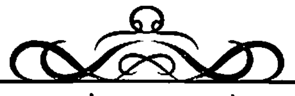
(٥)

حسابات الرحلة

على الرغم من انشغال أحمد بتلبية الدعوات وحضور الإحتفالات التي تقام لتكريمه في أمريكا والتي وجد نفسه غير قادر على إحتمالها ، فقد كان دائم التفكير في المهمة التجارية التي أوفده فيها السيد سعيد ، ولحسن الحظ بقيت كشوف الحساب الخاصة بالرحلة حيث وجد الأصل لدى الشيخ سليمان عبدالله شيبان في زنجبار ، وقد أخذت صورة منها محفوظة في متحف بيبودي في سالم بماساشوستس.

ومهما يكن الأمر كانت هذه الكشوف تعتبر وثيقة اقتصادية لها أهميتها، إذ أنها تلقي الضوء على بعض الممارسات التجارية في ذلك العصر، وتعطي صورة واضحة عن الأسعار والأذواق التي كانت تسود تجارة زنجبار منذ أكثر من قرن من الزمان ، وهي تعتبر أيضاً وثيقة إنسانية هامة رغم ما تمتلئ به من أخطاء حسابية ومبالغات.

ويعتقد القبطان البحري الأمريكي الذي أبحر على ظهر السفينة (سلطانة) في رحلة العودة إلى زنجبار أن الكثير من المصاريف الشخصية الخاصة بأحمد وضباطه قد أدرجت في كشوف الحساب كجزء من مصاريف نقل البضائع وتخزينها وتشوينها على أرصفة الميناء ، وغير ذلك من مصاريف غير مباشرة ، ولئن كانت هذه النفقات الشخصية مدرجة إلا أن الرقم المسجل تحت بند نفقات الشحن والتفريغ لا يكشف شيئاً من ذلك، إذا تبلغ كما تظهر في الكشوف ٧٠,٣٧ دولاراً (سبعين دولاراً وسبعة وثلاثين سنتاً) وهو مبلغ ضئيل لا يحتمل أن يكون فيه أي مبالغة أو أن تكون قد أدرجت ضمنه أي نفقات أخرى.



هـذا ، ولم تدرج أي نفقـات نظير التخزين ، وإنمـا أدرج مبلغان كبيران تحـت بند نفقات إقامـة ، الأول بمبلغ ٢٧١,٣٠ (مائتـان وإحدى وسبعون دولاراً وثلاثـون سنتاً) والثاني بمبلـغ ٣٠٠ دولارا (ثلاثمائة دولار) ، ويمثل هذا الرقمان نفقات أحمد والضباط في الفترة التي لم يكونوا فيها ضيوفاً على البحرية الأمريكية ، وإن كانا يقيمان أثناءها على ظهر السفينة ، وقد استلفت هـذان الرقمان نظـر السيد سعيد وأخذ يدقق فيهمـا أكثر وكان من الصعب أن يتصـور أحد أن أي نوع مـن الاختلال في الحسابات كبيراً كان أم صغيراً قد يفوت علـى السيد سعيد ونظرته الثاقبة ولكن الإختلافات في الكشوف كانـت طفيفة والتعديـلات في كشوف الحساب كانـت تتمشى مع ما كان يجرى في ذلك الوقت ، ومن ثم كانت متوقعة ومقبولة لدى السيد سعيد.

وعلـى أي حال فإن الذين كانوا يعملون مـع السيد سعيد كسكرتاريين لم يكونـوا يحصلون على مرتبات كبيرة ، ومثال ذلك أحمد الذي لم يستطع خـلال خدمته الطويلة أن يجمع ثروة كبيرة ، فقد كان يملك عند عودته من رحلتـه إلى أمريكا ما يعـادل ٢٤٢ دولاراً فقط ، وقد حـدث أنه بعد ذلك بأعـوام قليلة وقع في أزمة مالية إذ كان يحتـاج إلى مبلغ يعادل ٧٠ دولاراً، هـي عجز ما يملكه عن ثمـن مزرعة أراد شراءها لأسرتـه ، ولم يستطع تدبير مبلغ العجز بسهولة.

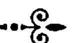
أمـا عن البضائع التي حملتهـا (سلطانة) من مسقط وهي في طريقها إلى نيويـورك فقد كانت ١٣٠٠ جوالاً من البلح و ٢١ بالة من السجاد الإيراني و ١٠٠ بالـة من بن مخا ، وأضيـف إلى ذلك في ميناء زنجبار ١٠٨ قطعة سن فيـل و ٨١ حقيبة من الصمغ العربي المنظف تنظيفاً جزئياً و ١٣٥ كيساً من القرنفـل و ١٠٠٠ قطعة جلد مجففة غـير مدبوغة من إنتاج جزيرة ممبا ، ولم يكن من الأنواع الجيدة المعروفة.



وقـد شحنت هذه البضائع لتصديرها للولايـات المتحدة لحساب السيد سعيـد ، علـى أن يشترى بثمنها بضائع أمريكية مصنعـة تناسب احتياجات سـوق زنجبـار ومسقط أو مما يحتاجه الحاكم نفسه ومـا يحتاجه نجله الأمير السيـد خالد لإستعماله الشخصـي ، وكانت معظم البضائـع التي حملتها (سلطانـة) مألوفـة في السـوق الأمريكيـة ومماثلـة لما كانت تحملـه السفن الأمريكية من زنجبار فيما عدا السجاد العجمي الذي وصل لأول مرة.

ومـمـا يذكـر أن القرنفل الذي حملتـه السفينة قد جاء مـن مزارع السيد سعيـد الخاصة وكان قـد أدخل زراعة هـذا المحصـول في جزيرتي زنجبار وبمبـا، وبالاضافة الى هـذه البضاعة الخاصة بالسلطان فـإن السيد خالد قد صـرح بحمل قليـل من البضائع لحسـاب بعض التجـار المبرزين في مسقط وزنجبار مثل سعيد بن خلفان وجيرام سيوجي. وإستجابة لما سبق أن اقترحه بوتسفـورد فان هذه البضائع كانت ستسلـم إلى مؤسسة سكوفيل وبريتون في نيويـورك التي كانت قد أخـذت على عاتقها تولي أمور الصفقة ، ولكن عنـد الوصـول الى نيويورك واجـه أحمد ما لم يكن يتوقعـه من المشاكل في تسويق هذه البضاعة ، ذلك أن مؤسسة سكوفيل وبريتون كانت قد أشهرت إفلاسها وأصبحت في أيدي أصحاب الديون ، وكان لا بد أن يجد وسيطاً آخر بأسرع ما يكون.

وبموافقـة لويد بريتون الشريـك الوحيد في تلك المؤسسـة التي أفلست اتجه أحمـد إلى مؤسسة باركلاي ولفنجستون لتتـولى العملية ورغم افتقار مؤسســة باركلاي ولفنجستـون إلى الخبرة في تجارة زنجبـار إلا أنها كانت تتمتع بإحترام كبير بـين بيوت الأعمال في نيويورك ، كما أنها كانت تتولى إلى جانب الأعمال الأخرى وكالة التجارة لمؤسسة لويد اللندنية.



ولقـد أمكن التوصل إلى إتفاقية خاصة بالتوزيـع على أن تقوم المؤسسة ببيـع حمولـة (سلطانة) من البضائع نظير عمولة تبلـغ ٥٪ وأن تقوم بعملية المشتريات نظير عمولة ٢,٥ في المائة وبناء عليه فقد نقلت حمولة السلطانة إلى مقـر المؤسسـة في ٢٦ شـارع برودواي ثـم قامت بالإعـلان عنها في الصحـف للمعاينـة قبل الشراء يوم ٨ مايو وأخذ جـورج باركلي أحد كبار المساهمين في المؤسسة العملية على عاتقه.

وكانـت حركة تصريـف البضائع مرضيـة ، إذ أن معظمها كان قد سلم للمشتريـين قبيل نهايـة يونيه ، وقد بيع القرنفل بسعر يتراوح بين ١٩ و ٢٠ سنتاً للرطـل أما الصمغ الذي كان يستعمـل في صناعة الطلاء والورنيش ، فقـد بيع بسعر يتراوح بين ٢٣و٢٦ سنتاً للرطـل الواحد من النوع المنظف و١٥ سنتاً للرطل من النوع الخام وبيع التمر بسعر يتراوح بين ٣و٤,٥ سنتاً للرطـل ، واشترى تجار فيلادليفيـا وبوسطن كميات من هـذا التمر لإعادة تعبئتها ونقلها إلى الأسواق الأجنبية.

وبيـع العاج بمبلـغ ٧٥ دولار للسن الواحـدة الكاملة ، أمـا البن الذي وزعت بعض أكياسه كهدايا لبعض الأشخاص ، والسجاد العجمي والجلود فقـد كانت جميعاً بضاعة شبه راكـدة أو غير مربحة إلى حد ما ، فقد بقيت كميـات من هـذه السلع الثلاث لم تكـن قد سوقت قبيل رحيـل (سلطانة) بوقـت قصير وكان ذلك في أغسطـس فخفضت أسعارهـا نسبياً إذ بيعت القطعـة من السجاد العجمي بما يتراوح بين ٥,٥ و ٧ دولارات بينما بيعت القطعـة من الجلد بمبلـغ ١,٣ دولاراً ، أما البن فقد بيع أول الأمر بسعر ٢٠ سنتـاً للرطل ثم بيعت الكمية المتبقية منه بسعر ١٤,٥ سنتاً للرطل ، وبذلك بلغت مبيعات بضائع سلطانة ٢٦٩٥٧ دولاراً.

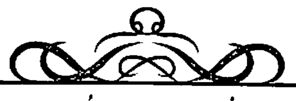


وقامت مؤسسة لفنجستون وباركلاي بعد ذلك بشراء البضائع التي حملتها (سلطانة) في رحلة العودة وتكونت هذه البضائع من ثلاثة مجموعات :

الأولى مجموعة من البضائع للبيع في سوق زنجبار ، وهي من البضائع التي كانت تخضع للإتفاقية بين السيد سعيد وجيرام سيوجي للقيام بتسويقها ، فكان يجب أن تأتي من خلال هذه المؤسسة المشار إليها ، نظراً لأن نسبة من أرباحها كانت تدخل خزانة السيد سعيد الشخصية ، وتتضمن هذه المجموعة من بين أصنافها : ١٢٥ بالة من القماش الرمادي اللون الذي يعرف في زنجبار باسم (مريكاني) وقد اشتريت بسعر يتراوح بين ٦ و ٨,٥ سنتاً للياردة المربعة.

و ٢٤ مقطعاً من القماش القرمزي اللون بسعر ٨٧,٥ سنتاً للياردة المربعة للنوع العادي و ١,٢ دولاراً للياردة المربعة من النوع الممتاز و ١٣ كيساً من الخرز الأحمر والأبيض والأزرق بسعر دولار واحد للرطل ، و ٢٠ دستة من لوحات الطباعة بسعر يتراوح بين ١,٠٥ دولاراً و ٤,٥ دولاراً للدستة و ٣٠٠ بندقية من النوع التقليدي بسعر ٣,٤٣ دولاراً و ٢٥ كيساً من البارود بسعر ٢,٧٥ دولاراً للكيس وكمية من الأطباق الخزفية يتراوح سعر الدستة منها بين ٢٦,٥ سنتاً ودولارين ، وبلغت جملة هذه المشتريات ١١١٧٧,٥٦ دولاراً.

أما المجموعة الثانية من البضائع فهي أصناف تم اختيارها خصيصاً للسيد سعيد ونجله السيد خالد لإستعمالهما الشخصي ، فللسيد سعيد اشتريت أربعة بنادق مزخرفة تكلفت الواحدة نحو ٧٠ دولاراً ، وكمية كبيرة من الشمع وعدة صناديق من خيوط الذهب و ٢٠ رزمة ورق



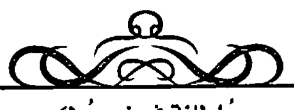
للكتابة، وخمسين صندوقاً من السكر المكرر ، وصندوقين من آنية الزهور، وصنـــدوق من زجاجات العطور ، وعشر علب موسيقية ، وبعض الصابون الأحمـــر ، وكمية مختارة من الزجاج الخاصــ وأطباق الخزف والمرايا ، هذا بالإضافة إلى عدد مـــن صناديق الحلوى واللوز وشراب الأناناس والبرتقال، وكيســ من الفواكــه المسكرة ، وقد بلغــت قيمة هذه المشــتروات الخاصة بالسيد سعيد ٣٦٨١,٢٥ دولاراً.

أمـــا المشتريات الخاصة بالسيد خالد فقــد كانت أكثر تواضعاً واشتملت علــى بعض المرايــا والشمعدانات والزجاج واللمبــات وبلغت قيمتها فقط ٥٠٥,٨ دولاراً.

وكانــت المجموعــة الثالثة من المشتريــات تمثل بعض المرايــا التي اشتريت لسعيد بــن خلفان ولبعض تجار زنجبار الآخريــن السابق ذكرهم ، ولما كانت قيمــة البضائع الخاصة بهؤلاء التجار ممــا حملته سلطانة غير كافية لدفع أثمان هذه السلع المشتراه لهم نقداً ، إقترض أحمد ٤٧٣,٢٧ دولاراً لتغطية الفرق.

وبلــغ الفرق بــين المبيعــات والمشتريات مــن البضائع والهدايــا والسلع الخاصــة ٤٠٠٠ دولاراً هــي صــافي المكسب مــن المرحلــة الأولى للرحلة أخذها أحمد معه على شــكل نقود فضية وخاصة من الدولارات الإسبانية التــي كانت تعرف في ذلك الوقت بالريالات المغربية ، وكانت هي والقطع ذات الخمســة فرنكات هي النقود الفضية التــي تمثل غطاء النقود الأمريكية وقد سدد عنها مبلغ ١١٦ دولاراً كرسوم إستبدال ، واشتريت خزانة خاصة لحملها فيها.

أمــا عن مصروفات الرحلة التي أنفقت بموجــب إيصالات ، فقد كانت عالية نسبياً وبلغــت جملتها ٢٢٣٨,٢٩ دولاراً تشمل مصاريف الحمالين



والـوزن والتعبئة وغيرها من نفقات تفريغ البضائـع التي أتت بها السفينة ، وتشتمـل أيضاً هـذه المصروفات على العمولة التـي حصلتها عليها مؤسسة باركلـي ولفنجستـون ، وقد زعم سكوفيـل فيما بعـد أن مؤسسة باركلي ولفنجستون المنافسة قد ربحت ما بين خمسة أو ستة آلاف دولار من عملية بيع بضائع السلطانة.

وبالطبـع فإن هذا الإدعاء ما هو إلا مجـرد زعم مرفوض طبقا لما ورد في كشوف حساب أحمد التي تظهر فيها العمولة التي سددت للمؤسسة نحو ١١٧٥ دولاراً ، وبالإضافـة إلى ذلك كانت هناك قائمة طويلة تشتمل على مصروفات السفينة ، وأجر الحراس والدمغات المقدمة على حساب مرتبات الطاقم والمبالغ الباهظة التي كان يدفعها سليمان كنفقات للطعام وغيرها مما كان يلزم دفعه.

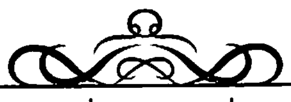
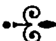
وقبيـل مغادرة السفينـة السلطانة بوقت قليل استطـاع باركلي بإعتباره وكيلاً لمؤسسة لويدز اللندنية أن يقنع أحمد بشراء بوليصة تأمين بحرية على السفينـة لرحلـة عودتها ، وهو عمـل لم يكن السيد سعيد قـد ألفه من قبل، وبذلـك بلغت جملـة المصروفات المختلفـة للسفينـة ٣٠٦٢,٧٦ دولاراً. وممـا يثـير السخرية هو أن بعض هذه المصروفـات كانت من نوع الخدمات التـي أصر التجـار الأمريكيون على استبعادها وفقـا للمعاهدة المعقودة بين الولايـات المتحـدة وعُمان عـام ١٨٣٣م مثل رسوم الإرشـاد داخل الميناء ورسوم الوزن وغيرها مما لم تعف منه السفينة السلطانة في ميناء نيويورك.

ولعـل إعطاء ملخص لكشف الحساب الذي أعـده أحمد يكون وسيلة لتوضيح الصورة ، وخاصة فيما يتعلق بالعناصر المختلفة لتكاليف المغامرة.



وعلـى أي الأحوال يبـدو أن أحمد وكذلك السيد سعيـد كانا راضين عمـا تم ، وقد استمر السيد سعيد علـى علاقته التجارية مع تلك المؤسسة - مؤسسة باركلي ولفنجستون وبخاصة بالنسبة لشراء البنادق وقطع غيارها.



(٦)
مسألة الهدايا

لم تكن المهمة التجارية هي الشيء الوحيد الذي كان يضطلع به أحمد في رحلته على السلطانة إلى نيويـورك ، بل كانت هناك مهام أخرى استكمالاً لمهمته التجارية ، فقد كان مكلفاً بالقيام بمهمة المبعوث الرسمي أثناء تواجده بالولايات المتحدة ، وتتضمن هذه المهمة الرسمية تسليم رسالتين من السيد سعيـد إلى الرئيس الامريكي فإن يورين مؤرختـين ٢٥ ديسمبر ١٨٣٩م ، وقد تولى سعيد بن خلفـان ترجمة وكتابة الخطابين باللغة الإنجليزية ، ويعبر الخطاب الأول عن مشاعر الصداقة والمودة التي يحملها السيد سعيد للرئيس والشعب الأمريكـي ، والثاني هو الرسالة التي صحبـت الهدايا المرسلة إلى الرئيـس ولو أن السيد سعيد تذكـر أن روبرتس سبق أن رفض حمل الهدايا للرئيس الأمريكي لما فكر في إرسالها.

واشتملـت هذه الهدايـا على فرسين من فرسان السبـاق النجدية وعقد مـن اللؤلؤ ، وحبتين كبيرتين مـن اللؤلؤ ، الواحدة منهـا في حجم وشكل الكمـثرى الكبيرة ، وحـوالي ١٢٠ قطعة من الأحجـار الكريمة الملونة يبلغ وزنهـا ١٨,٢٥ قيراطـاً ، وسبيكة مـن الذهب الخالص وسجـادة حريرية فارسية الصنع ، وزجاجة من عطر الورد ، وبعض ماء الورد ، وست عباءات كشميرية مطرزة وسيف مرصع بالذهب.

وبنـاء على طلـب أحمد قامـت مؤسسة باركلي ولفنجسـون نيابة عن أحمد بتسليـم خطابي السيد سعيد إلى الرئيس في ٢ مايو ، وانتظرت تلقي التعليمـات الخاصة بتسليم الهدايا ، وبعد ثلاثة أيـام كتبت المؤسسة خطاباً ثانيـاً إلى الرئيـس تذكر فيه أن أحمد سوف يضطـر إلى العودة بالهدايا إذا لم يقبل الرئيس تسلمها بنفسه.



وفي تلك الأثنـاء كان الفرسان النجديان قد أخذا إلى حظائر ترسال في برودواي حيث لقيا إعجاباً شديداً من كل من شاهدهما هناك.

وفي ٥ مايـو أرسـل جيسي هوايت رجـل الجمارك المسئـول عن ميناء نيويـورك وكان معروفاً بأنه نفعي وانتهـازي إلى الرئيس يخبره فيه بوصول السفينـة السلطانـة والهدايـا القيمة التـي أرسلها سلطان عُمـان بشيء من النفـاق، ويهنئه فيه على ذلك ، ووصف في خطابه الحصانين ، وتسائل عن كيفية التصرف فيهما ، وقال غامزاً أن شميث تومسون قد يحتاج إليهما في مزرعتـه ، ثم عاود الغمز قائـلاً : أعتقد أن الرئيس لا يمكن أن يسمح بذلك وكان علـى حق إذ أن الهدايا في عرف حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لا يمكن أن تعطى لأي من الإداريين.

ولقـد أحال البيت الأبيضـ هذه المراسـلات إلى وزارة الدولة ، وفي ٧ مايـو كتب جون فورسيـت إلى باركلي ولفنجستون مشـيراً إلى أن الرئيس ممنوع من قبول الهدايا الشخصية ، ولذا فإنه يطلب من أحمد أن يفهم الأمر ويقدر الموقـف ويسمح بالتصرف في الهدايا بطريقـة أخرى تتفق مع رغبة سيـده السلطان ، وأضـاف أن الرئيس يود معرفة موعد مغـادرة السلطانة حتى يكتب بنفسه رداً إلى صديقه السيد سعيد.

وبعـد ثلاثة أيام أي في ١٠ مايو سلـم سكرتير الدولة فورسيت خطاب الرئيسـ الأمريكي إلى السيد سعيد ، وجـاء في الخطاب قوله (لقد كان من دواعي السرور والرضى أن يقوم بين عُمان والولايات المتحدة ما نوده دائماً من صلات مفيدة في مجالات متعددة).

وأضـاف الرئيس الأمريكي في خطابـه : «إن وصول سفينة تحمل علم سلطانكم ودخولها ميناء نيويورك لشاهد على الرغبة في إقامة هذه العلاقات التـي نود أن تستمر بين بلدينا وتدوم..». وجاء في الخطاب أيضاً إشارة إلى



أن الرئيس بإعتباره موظفاً مدنياً في الدولة لا يستطيع أن يقبل الهدايا القيمة وأعرب عن تمنياته الطيبة بالصحة والسعادة لجلالة السلطان ، والقوة والمنعة لحكومة عُمان والسعادة والاستقرار لشعبها.

وعلى الرغم مـن اللهجة الشديدة التي عبر بها أحمد عن موقفه بالنسبة للهدايـا فقـد أدرك مؤخـراً أنه لا يمكن عمليـاً أن يعود بالهدايـا إلى زنجبار وبخاصة الخيول ، ولذا فقد كتب ثانية الى سكرتير الدولة فورسيت في ١٤ مايـو عن طريق باركلي ولفنجستون يذكـر أنه سوف يقدم خطاب الرئيس إلى السيـد سعيـد عند العـودة ، وأوضح في خطابه أن السيـد سعيد لم يكن علـى علم بالصعـاب المتعلقة بقبول الهدايا ، وأضـاف في خطابه أنه يشعر بثقـة كاملة في أنه يكـون قد نفذ أوامر الإمام إذا مـا اعتبرت الهدايا مقدمة إلى حكومة الولايات المتحدة ، وطلب إلى الرئيس أن يتفضل بإتخاذ اللازم نحو قبولها على هذا النحو.

وبإرسال هذا الخطاب أصبح أحمد في الجانب السليم فقد قدم النصيحة وأصبح يأمل أن يسمح له بتسليم الهدايا لممثل الحكومة الذي سيعين لذلك.

وهنـا وضع الرئيس الأمريكي في موقف حرج بالنسبة لموضوع الهدايا وكيـف يمكـن التصرف فيهـا ، خاصـة وأن عنصـراً آخر هاماً قـد أضيف إلى المشكلـة ، وهـو أن ملك مراكش كان قد أرسل أسديـن هدية للرئيس الأمريكـي ، وكان من المتوقـع وصول السفينة التي تحمـل تلك الهدايا إلى ميناء نيويورك يوم ٢١ مايو.

هنـا وجد الرئيس الحل في إحالة كل المراسلات إلى الكونجرس مقترحاً، أن يصـدر تشريعاً خاصا بذلك ينص علـى الطريقة التي يمكن بها للموظف التنفيذي أو عضو الهيئة التنفيذية أن يواجه بها مثل هذه الأمور في المستقبل في حالـة إذا ما قدمت إحدى الـدول الأجنبية هدايا للحكومة أو لأحد من

أعضاء هيئاتها التشريعية أو التنفيذية ، أو إلى ممثلي الحكومة في الخارج دون أن يؤدي الرفض إلى الوقوع في الحرج السياسي.

ولقد كانت هناك سوابق مماثلة ، ولكن بالنسبة لهدايا مقدمة لموظفين تنفيذيين أقل درجة ، ولو أن الكونجرس تردد كثيراً في إصدار تشريعات تتعلق بهذا الأمر إلا أنه قد قرر في سابقة مماثلة عام ١٨٣٥م أن تباع الهدايا بالمزاد العلني ، وكانت تلك الهدايا هي عدد من الخيول كان قد قدمها ملك مراكش للقنصل الامريكي في طنجة ، وكانت الخطوة التالية هي إيداع ثمنها في الخزانة إلا أن الموقف بالنسبة للهدايا المقدمة للرئيس ، ظل دون أن يستقر عليه رأي.

قدم جونسون نائب الرئيس الرسالة إلى مجلس الشيوخ في ٢٥ مايو ١٨٤٠م ، وحول مجلس الشيوخ الموضوع فوراً إلى لجنة العلاقات الخارجية لبحثه ، وبعد أيام قلائل أعلن السناتور جيمس بيوكانان ممثل بنسلفانيا ورئيس لجنة العلاقات الخارجية حلاً بسيطاً للغاية ، يخول للرئيس قبول الهدايا على أن يسلمها أو يسلم ثمنها للخزانة بعد بيعها، وطلب مجلس الشيوخ في أول يوليه بعد إقرار التوصية أن تعرض على مجلس النواب لإقرارها.

على أن مرور القرار في مجلس النواب كان أمراً مثيراً للعواصف من المعارضة والنقاش الطويل ، وكان المجلس قد أحال المكاتبات جميعاً إلى لجنة العلاقات الخارجية بمجلس النواب لدراستها ووضعت هذه اللجنة أمامها قرار مجلس الشيوخ بعد بدء عملها بأيام ، ثم خرجت في ٩ يونية باقتراح معدل ألغيت منه عبارة إيداع القيمة النقدية في الخزانة واستبدلت بذلك إقتراح لتوزيع الهدايا على النحو التالي : فالسيف يودع في وزارة الدولة ، أما حصيلة بيع بقية الهدايا فتقسم بين المؤسستين الخيريتين اللتين كانتا تعملان في نيويورك في ذلك الوقت.

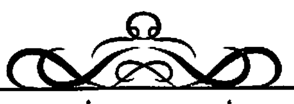


جـاءت هذه المقترحات كمحاولة لتجنب الدخول في خلاف دستوري يتمثل في موضوع إيداع أموال من غير حصيلة الضرائب في خزينة الدولة.

وأصبـح من المتوقـع بهذا أن تتـم الموافقة على هـذه التوصيات المعدلة ودخـل في الموضوع خصم جديد معارض لم يكـن في الحسبان هو (جون آدمـز) الرئيس السابق الـذي كان يمثل دائرة ماساشوستس وكان يبلغ من السـن ٤٧ عامـاً ويعـاني من كسر في عظـام الكتف ، وقف بمجـرد أن بدأ رئيس المجلس طرح الموضـوع للمناقشة وقاطعه طالباً الكلمة ، وقال : إنه لم يسبق للكونجرس أن وافق على السماح بقبول مثل هذه الهدايا من الدول أو القـوى الأجنبية ، ثم ذكـر أن توماس بيكلي قد منع من قبول الهدايا عام ١٧٩٨م حينما كان يقوم بالتفاوض مع أسبانيا ، وطالب بعدم الموافقة على القرار ، وقد أدى ذلك إلى إعادة الموضوع إلى لجنة العلاقات الخارجية.

ومضى شهر كامل ، قام مؤيدو القرار أثناءه برسم استراتيجيتهم فطالب آدمـز أن يعيد النظر في إعتراضه ، ورغم أنـه كان من أشد المعارضين لحكم فان يورين فان اعتراضاته لم تكن من قبيل المعارضة ولكن كان همه في هذه الواقعـة يتجه كلياً إلى اعتقـاده في أن مرور مثل هذا القرار بقبول الهدايا قد يكـون سابقة سيئة يستمر على أساسها قبـول الهدايا . وفي محاولة للتماشي مـع هذا الرأي اقترحت اللجنة في ٧ يوليو صياغة جديدة بحيث لا تشتمل علـى عبارة قبول الهدايا ولكن عبـارة (تسليم الهدايا) وظل آدمز لمدة ثلاثة أيـام من ٧ يوليو إلى ٩ يوليو متمسكاً بمعارضتـه حتى كاد الأشتباك ينشب بين الأعضاء بسبب هدايا السيد سعيد.

ولقـد تصدى مؤيدو مشروع القرار بقيـادة عضو الكونجرس عن دائرة كارولينـا الجنوبية فرنسيس بيكنز ، الذي ذكـر أن آدمز قد بالغ بصورة غير مقبولـة في مفهـوم الهدايا ، وقال : إننا جميعاً متفقـون على منع أي عضو



في الهيئـة التنفيذية أو الحكومية من قبول هدايا من الدول الأجنبية ، غير أن الهدايـا في مثل هذه الحالة التـي بين أيدينا لم يقصد بهـا إلا إظهار الإحترام والتعبـير عن الصداقة وحسن النية تجـاه حكومة الولايات المتحدة وشعبها، وإن كـرم السيـد سعيد وشهامته التي عرفناهـا في موقفه من الحادث الأليم الـذي حـدث للسفينة بيكوك لا يمكـن أن يقابل بتصرف ينـم عن الجحود برفض هداياه وذكر مؤيدو القرار أيضاً أن هناك سابقة الكونجرس الأمريكي في محاولة لمعالجة موقف مماثل وهي التصريح للرئيس بقبول ميدالية من رئيس جمهورية كولومبيا.

رفضـ المعارضون بقيادة آدمـز هذا الرأي الأخير بحجـة أن المجلس لم يسبق له أن سمح لأي من أعضاء الهيئة التنفيذية بقبول هدايا من دول أجنبية وذكر أنه في الفـترة من عام ١٧٩٨م إلى عام ١٨٣٤م كان هناك رفضاً باتاً لقبـول مثل هذه الهدايا وأن سابقة ميدالية كولومبيا لا يمكن إعتبارها سابقة لمثـل هذا الموضـوع ، وأن السماح بقبول الهدايا سـوف يوجد سابقة غير مرغـوب فيها ، كما أن بيع الهدايا ، في نفس الوقت دون إعلان قبولها يعد تصرفـاً غـير أخلاقي ، ومثل هذا التصرف قد يـؤدي إلى إثارة غضب السيد سعيد بدرجة أكبر.

وفي الثامن من يوليه نجح مؤيدو آدمز من خلال مناورة برلمانية في إسقاط الإقـتراح ، وقـد تهلل آدمز ورفاقـه ، وأعلن آدمز أن مجلسـ النواب سوف يغـير اتجاهه قريبـاً ، وكان توقعه صحيحاً ، وذلك هـو ما حدث في مجلس الشيوخ حتى قبل إبلاغه بإسقاط الإقتراح ، إذ استطاع ناتان كليفورد عضو الكونجرسـ عن دائرة ماين أن يسترد القـرار من كاتب المجلس ، لكي يعيد إثارتـه في الاجتماعات ، ولما لم يستطع كاتـب المجلس أن يرسل الموضوع




مستكمــلاً إلى مجلس الشيوخ من فوره طبقــا للوائح المعمول بها في البرلمان الأمريكي فإن التصرف هو أن يوضع الكاتب تحت المراقبة.

وبإستخدام كل وسائل المنــاورات البرلمانية لتهدئة الموقف والمناقشات، قبــل آدمــز ما لم يكــن يقبله من قبل ، وهــو إصدار القرار بعــد إعادة تعديله بإيــداع حصيلة بيع الهدايا في خزانة الدولــة ثم في نهاية الأمر عدل بحيث لا يمــس أحداً بصياغته على أنــه قرار مشترك من المجلســين من أجل زيادة إيرادات الخزانة عن طريق بيع الهدايا التي قدمت للولايات المتحدة من إمام زنجبار وملك مراكش ، وهكذا هزم أصحاب الرأي بقبول الهدايا وقبل هذا التعديل الذي أدخله مجلس الشيوخ ووقعه الرئيس في ٢٠ يوليه.

ويبدو أن أحمد لم يتفهم التعقيدات التي صحبت مناقشة موضوع الهدايا التــي أحضرهــا ، إلا أنها على كل الأحوال لم تؤخــذ على أنها نوع من عدم الإحــترام أو سوء التقدير للسيــد سعيد ، بل على عكس ذلك فإنه في خلال المناقشات على سبيل المثال اقترح هوارس افريت عضو الكونجرس عن دائرة فرمونــت أن تؤخذ على أنها تعويض عن إصــلاح السفينة (السلطانة) على نفقــة الولايات المتحدة مع تقديم هدايــا مقابلة للسيد سعيد الذي وصفه في كلمته (بالأمير ذي العقل الراجح).

ومثال آخر ما أعلنه ألكسندر دانكان عضو الكونجرس عن دائرة أوهايو في إجتماع ٢١ يوليه من أنه سوف يقدم في الجلسة التالية إقتراحاً بأن يخول الرئيــس الأمريكي سلطة إهداء حاكم مسقط مركبــاً شراعياً حربياً ذا شراع واحد ، ولئن لم يوجد ما يشير إلى تقديم مثل هذا الإقتراح ، إلا أن الفكرة في حد ذاتها كانت تنم عن الإحترام البالغ ، والتقدير الذي اكتسبه السيد سعيد في أوساط الأمريكيين.



وبناءاً على القرار أصبح من الممكن أن تتسلم حكومة الولايات المتحدة الهدايا وأخذت إلى واشنطن حيث اودعت معظمها في مبنى وزارة الدولة ، ثم نقلت إلى مكتب براءات الإختراع القديم حيث عملت الترتيبات اللازمة لبيعها بالمزاد العلني في صالة ذلك المكتب في يوم ٤ أغسطس ١٨٤٠م.

وكانت الخيول تنقل كل يوم إلى أرض السباق لعرضها على الراغبين في شرائها لتحسين نسل الخيول الأمريكية ، وتم البيع بمعرفة خبير المزادات المشهور إدوارد دواير في اليوم المحدد ، وقد بيع الحصان الرمادي الفاتح بمبلغ ٦٥٠ دولارا واشتراه ل.م.بويل الفرجيني ، وبيع الآخر الغامق اللون بمبلغ ٦٧٥ دولارا واشتراه الجنرال جون إيتون من تنسي وكان مشهوراً باسم بيجي ايتون ، وكان هذا الإسم قد أطلقه عليه رئيس أسبانيا حينما كان يشغل منصب وزير في الولايات المتحدة ، وبعد خصم حساب خبير المزادات والتكاليف الأخرى أودع في الخزانة مبلغ ٩٩٣,٢٨ دولاراً كحصيلة بيع الهدايا.





(٧)

الاستعداد للعودة

مضى شهر يونيــه ومضت أيام من شهر يوليه وقاربت مهمة أحمد على الإنتهــاء ، وكذلــك كاد العمل في إصــلاح (السلطانة) ينتهــي وأصبح من الممكــن لأحمد أن يعد خطته لرحلة العودة ، وكانت الرحلة تحتاج قبل كل شــيء إلى ربــان جديد إذ لم تكن علاقة أحمد بسليمــان على ما يرام ، بل إن تلــك العلاقة قد ساءت منــذ وصول السفينة إلى نيويــورك نتيجة لتصرفات سليمــان بالنسبة للبحارين اللذين كانا من أصل فرنسي فقد اختلف معهما، وقــرر تخفيض رتبتهما ثم فصلهما من العمل أخيراً دون الرجوع إلى أحمد أو استشارته.

وفضــلاً عن ذلك فقد كان طاقــم السفينة لا يكن لسليمــان أي إحترام فأصبحت رحلة العودة مستحيلة تحت رئاسته لما قد يسببه من مشكلات.

وذكــرت صحيفة الهيرالــد أن أحمد كان يصف سليمــان بأنه رجل سيء، ويود التخلص منه ، وأنه شغوف بأن يتخذ للسفينة قبطاناً أمريكياً ليقــود السفينة أثنــاء رحلة العودة . وبعد أيام قلائــل ترك سليمان خدمة السفينــة وغادرهــا إلى لندن بعــد أن حصل على مبلغ مقــدم من مرتباته لتغطية نفقات رحلته.

اتصل أحمد عن طريق باركلي ولفنجستون بالكابتن ساندوتش دونكر الذي كان يقطن في ١٠١ نورث ستريت بفيلاديلفيا في محاولة لتكليفه بمهمة قيــادة السفينة في رحلة العــودة ، وكان درنكر هذا شاباً في الثانية والثلاثين من عمره ، ورغم هذا السن الصغير كان حتى ذلك الوقت قد سجل أعمالاً بحريــة ممتــازة آخرها أنه قد عاد منذ شهور قلائل مــن رحلة بحرية طويلة ، وأخبر عند عودته من هذه الرحلة أن السيد سعيد يود إقامة علاقات منتظمة

مــع نيويورك وقــد كان السيد سعيد يأمل في أن يضــع إحدى سفنه الكبيرة حمولة ٦٠٠ طن تحــت تصرفه على أن يقودها درنكر على خط تجارة دائم مع نيويورك.

كان العرضــ المقدم من السيد سعيد للكابتن درنكر عرضاً مغرياً خاصة وأن درنكر كان قد تزوج حديثاً وأصبح في حاجة إلى مزيد من المال لإعالة أسرته ، فقبل العرض بقيادة (السلطانة) في رحلة العودة.

ورغــم أن الإصلاحات التي كانــت جارية في السفينة لم تكن قد انتهت بعــد فإن القاطــرة البحرية التجاريــة المسماة روفوس كنــج قامت بناء على الأوامــر الصادرة لها بقطر (السلطانة) مــن حوض البحرية إلى حوض آخر في مجــرى النهر الشمــالي على بعد قليل من رصيف ركتــور ستريت ، وهنا حــدث أن فر سبعة من طاقــم السفينة يقال أنهم من الرقيــق الذين كانوا قد تأثروا بنشاط القائمين بحركات تحرير الرقيق في أمريكا، وكان المعتقد أنهم اختبــأوا في مــكان ما بالمدينة ، ولم يمكن العثــور إلا على واحد منهم فقط ، ومن الغريب ان الصحف المنادية بتحرير العبيد في نيويورك تجاهلت السفينة السلطانــة تماماً رغم العدد الكبير الذي كان على ظهــر السفينة من الزنوج الافريقيــين وليســ من شك في أن أخبــار المعاملة السيئة لطاقــم السفينة قد تسربت من جانب بعض المؤيدين لحركة تحرير الرقيق في الميناء.

وربما كان تجاهل مسألة الرقيق على السفينة (السلطانة) يرجع إلى طغيان أخبار السفينــة (سارة آن) التي أرغمت على الاتجــاه إلى ميناء نيويورك قبل وصول السلطانة بأيام قلائل نتيجة لإتهامها بنقل الرقيق.

ومهمــا يكن من أمــر فان فرار عدد مــن طاقم (السلطانة) قــد أدى إلى إتخــاذ مزيــد من الاحتياطات لكــي لا يتكرر الهــروب خاصة وقد اقترب موعــد رحيل السفينة فعــين إثنان من رجــال البوليس مرة أخــرى لحراسة

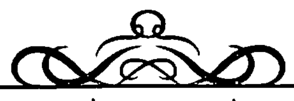


السفينة منذ ٥ أغسطس لمراقبة تحركات الطاقم غير أنه في يوم الرحيل نفسه وبمجـرد أن غادر رجلا البوليس السفينة قفز إثنان من البحارة من على ظهر السفينـة إلى الماء ولكن البوليـس أعادهما تنفيذاً لقرار منـع أي عملية فرار مـن سفن الدول الصديقة التي تتعامل مـع الولايات المتحدة على أساس من إتفاقية مصدق عليها.

وبإقـتراب يوم مغـادرة (السلطانـة) لميناء نيويـورك عاود الـرأي العام الحديـث حول موضوع الهدايا التي يجب أن يرسلها الرئيس الأمريكي إلى السيـد سعيد ، وكانت جميع المحاولات بالحصول على موافقة الكونجرس على انفاق خمسة آلاف دولار لإصلاح السفينة وإرسال الهدايا قد فشلت، ولكن المبلغ دبر في النهاية بطريقة غير معلنة وربما كان المصدر هو وفورات ميزانيـة الوزارة البحرية التي استطاعت الخزانة في هذه الظروف الخاصة أن تنقله إلى اعتمادات أخرى تتصل بنفس البند.

وممـا أثار الدهشة أكثر أن زورق نزهة طولـه ٣١ قدما وعرضه ٤ أقدام و ٨ بوصات وعمقه ٢١ بوصة ، صنع خصيصاً بمعرفة الإخوة كردليوس في نيويورك بنـاءاً على أمـر شخصي من ج.س. لفنجستون وكيـل البحرية، وقد عرض هذا الـزورق في وول ستريـت يـوم ٧ يوليـو ، وكان حسب ماوصفـه المشاهدون مصنوعاً بدقة متناهية من أرق أنواع خشب السدر ، وقد طليت جوانبه بأحسن أنـواع الطـلاء، وكانت إطارات فتحـات المدافع وحامـلات المجاديف وذراع الدفة وقاعدتها ، وحاملات المظلة جميعاً مغطاة بمعدن فضي لامع.

أما أرضية الزورق فقد غطيت ببساط أحمر قاني : وكانت المظلة مركبة بحيث تغطي كل أجزاء الزورق ومصنوعة من قماش كتاني محاط من أطرافه بحرير أزرق وفوق المقاعد وضعت وسادات من الساتان الأبيض ، وكانت الحبال كذلك مصنوعه من خيوط حريرية زرقاء.



وقـد قيل ، إن هذا القارب قد تكلف ألفـي دولار ، وكان الإعجاب به شديـداً حتى إن جريدة الإخوة جوناثان قالت في تهكم (لعله أفخم وأفخر قارب) ، ولشحن القارب مع السلطانة عمل له خصيصاً صندوقا معدنياً من الصفيح لربطه بالسفينة فيمنع عنه الصدأ وتسرب الماء إليه.

ولما كان يعرف عن ولع السيد سعيد بالأسلحة فقد أمر الرئيس الأمريكي أن يكون من بين الهدايا المرسلة إليه مجموعة من الأسلحة النارية ، وبناءاً عليه فقد قام محل كلـوب لبيع الأسلحة الكائن في ١٥٥ برو دواي بتسليم أربعة مسدسات فخمة من الموجنـي ، لكل منها خزان يحمل خمس رصاصات وكان طول ماسورة المسدس ثمانية بوصات وجسمها مطعم بالأصداف ، أمـا البنادق فكانت من خشـب الموجني السوداء ، وقد نقش على الأسلحة وعلـى أغطيتها أيضاً باللغة العربية عبارة (هدية من رئيس الولايات المتحدة إلى إمام مسقط) وأرسلت مع هذه الأسلحة مجموعة من قطع الغيار المختلفة والذخيرة اللازمة.

وأكملت هدية الرئيس الأمريكي مرآتان ثمينتان ، وبعض الشمعدانات المزخرفـة الفاخـرة وكانت قد اشتريـت من محل انـدرود الكائن في ١٨٦ فلتـون ستريت وهـو معروف بتحفه الثمينة الغاليـة ، وكانت المرآة من أكبر حجم صنع في الولايات المتحدة ، طولها مائة بوصة وعرضها ٧٢ بوصة ، وهي تناسب قصور السيد سعيد.

وبالإضافة إلى هذه الهدايا وصلت للسيد سعيد بعض الهدايا الشخصية من الأمريكيين وبعض الهيئـات : مثل جمعية الكتاب المقدس في نيويورك فقـد قدمت ترجمة عربية مـن الكتاب المقدس إلى السيـد سعيد (وكان قد تلقـى نسخة مـن قبل من الكابتن أوين عـام ١٨٢٤م قبيل أن تحدث حادثة مباسـة) وأعطيـت أيضـاً نسخة شخصيـة لأحمد كما أرسل محـل الأدوية



المشهـور أوستن تشيرمـان الكائن في ١٠٦ ناساو ستريـت صندوقاً معدنياً كبـيراً مملوءاً بخمسـين علبة من إنتاجـه المشهور من أنـواع الحلوى الطبية المعروفـة ، وكان ذلك من قبيـل الدعاية لإنتاجها ، ومن هذه الأنواع ما هو ضـد ديدان البطن والصداع والحموضة ونزلات البرد وغيرها. وقد علقت صحيفة الإخوة جوناثان على هذه الهدية بقولها : (إذا لم تؤد هذه إلى إنعاش جلالته فإنه يكون في غير حاجة إليها أو أنه يكون قد شفى من كل الأمراض قبل استعمالها).

ولقـد بدأت الترتيبـات النهائية لإبحـار السفينـة (السلطانة) في رحلة العـودة ، وفي اليوم الخامـس والعشرين ربط فيها الصنـدوق الذي يحتوي علـى القارب ، وبـدأ تحميل البضاعة بعد ذلك ببضعـة أيام ، غير أنه حدث في يـوم ٣ أغسطس ما لم يكن في الحسبان ، إذ هبت عاصفة عاتية وصفتها الهيرالد بأنه لم يسبق أن شهدت نيويورك مثلها أبداً ،ولا يذكر أقدم السكان في هذه المنطقة أن سبق حدوث مثلها في حياتهم.

استمـرت الريح والرعد والبرق لمدة عشـر ساعات متصلة دون انقطاع أو توقـف ، وفي الساعـة السادسة مسـاءاً سقطت صاعقة فـوق السفينة فهزت جسـم السفينة وصواري المؤخرة هزاً عنيفاً ومرت منها عبر المؤخرة فكسرت الطـرف المرتفع فيها وانتهـت إلى الصندوق المعدني الـذي وضع فيه القارب فشقته نصفين ، وأصيب في هذا الحادث محمد عبدالله الضابط الأول وإثنان أو ثلاثـة من البحارة ، ولكن كانت إصاباتهم غير خطيرة ، ولحسن الحظ لم يكن البارود قد حمل على ظهر السفينة بعد وإلا لأدى إلى كارثة انفجار ضخمة.

وقد تأثرت بالعاصفـة أكثر من اثنتي عشر سفينة كانت راسية في الميناء كمـا أن الكثـير من المباني بما فيهـا كنيسة سانت بول قـد أصيبت بالدمار نتيجة للعاصفة.

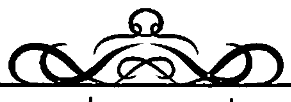
ولما علم عميد البحرية رانشو بالحادث أرسل من فوره مجموعة من الرجال من البحرية للمساعدة في إصلاح الدمار ، وبمساعدتهم أمكن للسفينة أن تعود إلى حالتها وتصبح معدة للرحيل خلال يومين.

وفي السابع من أغسطس أتمت السلطانة الإجراءات الجمركية للإبحار إلى مسقط وزنجبار ، وكان بحارتها قد انخفضوا إلى ٧٤ بحاراً من بينهم أربعة أمريكيين لم تذكر أسماؤهم ، كان درنكر قد عينهم لملء الوظائف التي شغرت نتيجة لمغادرة بعض البحارة ، وكان هناك مسافر هام سيصحب الرحلة هو وليم روترز شقيق القنصل ووترز وكان يطلق عليه أستاذ الدين.

وبعد يومين وفي صبيحة التاسع من أغسطس قام القارب البخاري هركيولس بقطر السلطانة خارج الميناء إلى اللسان الرملي ، وكان أحمد بعقليته الإقتصادية قد عارض في أن تقطر السفينة ما دامت هناك ريح غربية منتظمة لتوفير تكاليف القطر البالغة ٦٢ دولاراً ولكن درنكر أوضح له أن السفينة لا يمكن أن تخرج من الميناء دون قطر.

وخارج منطقة الحجر الصحي مرت (السلطانة) بالسفينة التجارية الضخمة جريت وسترن التي كانت تعتبر مفخرة الأسطول الذي يعبر الأطلسي ، وأطلقت السلطانة ثلاثة صفارات تحية لملكة البحار ، وردت جريت وسترن على التحية بمثلها ، وبدأت رحلة العودة .





(٨)

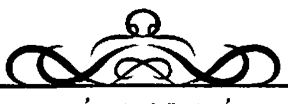
في رحلة العودة

قام درنكر بكتابة مذكرات عـن الأحداث اليومية وعن خواطره طوال الرحلـة ، ومن هـذه المذكرات توجـد نسخة محفوظة لدى أسـرة درنكر ، وتعتـبر هذه المذكرات من السجلات ذات القيمة الكبيرة التي تعطي صورة عـن الحياة على ظهر السفينة ولعـل قيمتها تزيد أكثر حينما يأتي اليوم الذي تنشر فيه ، وتعتمد هذه الدراسة على مذكرات درنكر في كثير من أجزائها.

كان درنكـر قد وضع خطة الإبحار بحيث يتجـه بالسفينة إتجاهاً شرقياً مباشراً لأقصى مدى يمكن ان تبلغه قبل أن ينحرف بها شمالاً بشرق مع اتجاه الريـح التي تسود في المنطقة المحصـورة بين خطى عرض ١٢ و ٢٨ درجة شمـالاً . ولكن واجهت (السلطانة) متاعب جوية كبيرة أكثر بكثير مما كان منتظـراً إذ تعاقبـت فترات من الرهـو (أو السكون الشديـد في الرياح) مع هبـات عاصفة مفاجئة من رياح مضادة ، حتـى أنه حدث مرتين أن كانت الأشرعـة تقتلع من صواريها لولا سرعة التصـرف بتحويل إتجاه الأشرعة إلى الاتجاه المضاد لاستيعاب الريح العاصفة.

ولقـد اجتازت السفينة منطقة الرياح الشمالية الشرقية دون أن تهب أي رياح مساعدة بل إن رياح الجنوب الشرقي كانت تدفع السفينة أكثر في إتجاه الغرب فتبعدها عن الخط المعتاد لطريق رأس الرجاء الصالح.

هـذا ولم تلتق (السلطانة) في طريقها بـأي سفينة أخرى غير التي قابلتها يوم المغـادرة سوى السفينة جون كالين التي كانـت قد غادرت كانتون في الصـين منـذ ١١٧ يوماً متجهة الى نيويورك ، وقد مـرت بها (السلطانة في عرض البحر يوم ٩ سبتمبر ، وأرسل لها أحدهم مقداراً من البطاطس والتبغ وجوالاً من التمر تقديراً لحالتها وإدراكاً للرحلة الطويلة التي قطعتها.



وإلى جانب صعوبات الجو يذكر درنكر صعوبة أخرى هي عدم تحمس ضباطـه ومساعديه للعمل ، وقـد كتب يقول : لقد وجـدت نفسي أعمل قائـداً ومساعـداً وكل شيء آخر ، فقد تبين أن أفـراد الطاقم غير متحمسين وغـير متعاونين ، الأمر الذي أرجعه درنكر لسوء الإدارة التي اعتادوها منذ كان سليمان الإنجليزي ضابطاً أول للسفينة وعاد فذكر أنه قد أمكن استثارة حماس البحارة نتيجة لتصرف حسن اتخذه أحمد ، فقد منحهم يوم الجمعة كإجازة للراحة مما شجعهم على العمل بقية أيام الأسبوع.

علـى الرغم من ذلك فـإن درنكر لم يجرؤ أن يعترف بـأن سيطرته على طاقـم السفينة كان كاملاً وفعـالاً وقد سجل في ٩ سبتمـبر يومياته مصوراً حالة طاقمه على النحو التالي:

قضـى الضابـط الأول محمد عبدالله معظم الوقـت وخاصة في الأسابيع الأولى نائمـاً وكأنـه قد تحول إلى جثة هامدة أما ابـن نعُمان فلم يكن بحاراً محترفـاً لذا لم يشـأ درنكر أن يتركه وحيداً على ظهـر السفينة كان الشخص الوحيد الذي استحق التقدير من جميع الضباط والبحارة هو الضابط الثاني محمـد جمعه ، فرغم أنـه كان يعاني من ألم في إحدى قدميـه نتيجة لإصابته فيهـا بدودة غينيا ، ورغم أنه كان يضـع الضمادات عليها من وقت لآخر ، إلا أنـه كان الوحيـد الذي كان يتبادل قيادة السفينـة مع درنكر طيلة الليالي والأسابيـع التي قضتها السلطانة في عرض البحـر. وكان درنكر قد عرف عنـه الطموح والرغبـة في التقدم قبل مغادرتهم نيويـورك فأحضر له كتاب بوديتسـ الملاح العملي والذي أمكنـه أن يستوعبه لدرجة جعلته قادراً على أن يعلم البحارة الآخرين مبادئ الملاحة البحرية.

اعتاد درنكـر وجمعة أن يقوما سوياً كل يوم بقيـاسـ إنحراف الشمس لتحديد خطوط الطول والعرض ، وقد تدرب جمعة على ذلك حتى أصبح



قــادراً بعد مدة أن يقوم وحده بتحديد موقع السفينة بدقة متناهية ، مما أسعد درنكر كثيراً فكتب معلقاً على ذلك بقوله : (أنه شخص كفء ويتميز بعقلية واعية نادرة مما أسعدني كثيراً).

وأضاف : (إن جمعة في الواقع هو من أحسن الشخصيات التي التقيت بها في حياتي وأصبح له مكانة حب كبيرة عندي).

ولمــا كان درنكــر لا يجد جمعة دائمــاً في الحالات الجويــة السيئة التي يتعرضــ لها أثناء دوره في القيادة ليترجم له الأوامر إلى الطاقم ، فقد اضطر إلى أن يتعلم أسماء الأشياء المهمة وبعض الأوامر المتعددة بألفاظ اللغات التي يتكلمهــا أفراد الطاقم ، وهي لغــات متعددة ، فإلى جانب العربية يوجد من كان لا يعرف إلا السواحلية أو لغة الحجراني الهندية أو اللغة الملايوية.

ولقد تضايق كل من درنكر وووترز من الحيز المحدود على ظهر السفينة نتيجة لازدحام الممرات ببعض الهدايا التي أرسلها الرئيس الأمريكي للسيد سعيــد ، وكانت تشغل حيزاً كبيراً منها حتى أصبح من المتعذر على شاغليها أن يمدوا أذرعهم أو يتحركوا بحرية في داخلها.

أما عن المطبخ فقد كان من أفضل الأشياء في الرحلة وبخاصة في المراحل الأولى منها فالطباخ البرتغالي لويس بقى ضمن الطاقم وانضم إليه في رحلة العــودة مساعد تم التعاقد معه في نيويورك هــو جون ، وعلق درنكر عنهما بقولــه : (إنهما بلا شك طباخــان ماهران ، ولقد كنا نــود أن نستمتع أكثر بطعامهما لو أنهما كانا ينظفان أيديهما ويستعملان المنديل إذا عطسا).

ويذكــر الكابتن درنكر أنه في إحــدى المناسبات طلب من جون أن يعد لــه صحناً خاصاً من حساء الفاصوليا ، وهي من الوجبات التي اعتاد جون أن يقدمها فقط للبحارة العاديين ، فأراد أن يقدم صحن حساء يناسب كبراء القــوم للكابتن ، وكتب درنكر معلقــاً على طبق الحساء بقوله : (لقد ذكرني



صحـن الحساء هذا بصحن يحتوي ماء قد أخـذ من حوض الغسيل بعد أن تجمعت فيه كل دهون أطباق وجبات عديدة غسلت فيه من قبل).

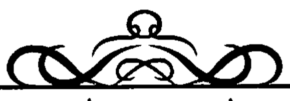
وفي يـوم السبـت وكانت العادة أن يذبح خـروف أو شاة لتوفير اللحم الـلازم للضباط ، وقد تعلم جون كثيراً وتـدرب وعلمه ووترز كيف يصنع الخبز فأصبح بذلك أفضل بكثير مما كان عليه.

وبمضـي الأيام والأسابيـع أخذ الملل يشيع على ظهـر السفينة ، وكانت الصـلاة من وسائل القضاء على الملـل ، فلقد كان كل من درنكر ووترز من المتمسكـين بدينهم ، وكانت وقت الصلاة يوم الأحـد وقتاً مقدساً بالنسبة لهمـا إذا ما سمحت ظروف الملاحة للكابتن درنكـر بذلك ، وكان أحمد بالمثـل مواظباً على أداء فريضة الصـلاة ، واعتاد أن يسأل كل بضعة أيام عن اتجاه القبلة بعد تغيير السفينة لموقعها أو اتجاهها.

وعـبرت (السلطانة) خط الاستـواء في ٢١ سبتمبر ثم بعد ذلك بتسعة أيام مـرت على جزيرة ترنداد غير المسكونـة ، وكان على السفينة أن تسير خمسة أسابيع طويلة بعد ذلك حتى تقترب من الأرض ثانية عند رأس الرجاء الصالح، ووصلـت إلى رأس الرجاء الصالـح يوم ٣٠ أكتوبر فكتـب درنكر معبراً عن الموقف بقوله : (صاح الجميع .. الأرض .. الأرض .. ولم يسبق لي أن سعدت لسماع هذه الصيحة مثلما سعدت بها الآن فقد وصلنا الكاب وكنا نتوق إلى هذا الوصول ، فقد نفد الماء أو كاد وقل الزاد وقارب على الانتهاء).

بقيـت السفينة أسبوعـاً في ميناء الكاب تتزود بمـا تحتاجه من غذاء وماء ولكـي يستريـح البحارة قبل الرحيل الثـاني لمواصلة الرحلـة في التاسع من نوفمبر وكان لويس قد هجر السفينة وكان ذلك خيراً لها.

صادف أن كان شهـر نوفمبر ذلك العام يقابل شهر رمضان المعظم وقد واظب أحمد وضباطه وجميع البحارة على الصيام بإنتظام، وكان أحمد من



جانبـه يعكف على الصلاة وقراءة القرآن وقد ذكر درنكر أن الجميع فضلوا الصيـام رغم أن القرآن – كما علم من أحمد – يبيح للمسافر الإفطار، وفي وصفـه لمائدة الإفطار قال درنكـر: (يقف الخدم حول الجمع المنتظر للطعام حتـى إذا مـا أطلقت الإشارة بـأن الصوم قد انتهى باختفـاء آخر شعاع من الشمس وراء الأفق اندفع الجميع يغرسون أيديهم في الأرز الغني بالدهن).

وبمضي الأيام في شهر رمضان بدأ تأثير الصيام يظهر على البحارة الذين كانـوا يتكاسلون عـن أداء عملهم بدعـوى أنهم صائمـون وكانوا – كما قـال درنكر – يشكون من كونهم مرغمـين على العمل في الوقت الذي لا يستطيعون فيه تناول الطعام.

ومما ذكره درنكر أنـه قبيل مغادرة السفينة لميناء الكاب استطاع أن يقنع أحمـد بشراء خروفين كبيرين ليذبحا يوم عيـد الفطر خصيصاً ليأكل منهما كل بحـارة السفينة، وقد كان لهذا أثـره الكبير على رفع معنويات البحارة خلال المرحلة الأخيرة من الرحلة.

وفي ٢٢ نوفمبر دخلت (السلطانة) خليج موزمبيق، وبعد ذلك بإسبوع كانت تمر على جزيرة موبوتو وهي آخر جزر القمر من جهة الشرق، وأخيراً في ٧ ديسمـبر وصلـت السفينة إلى جزيـرة شومبا التي تبعـد ثمانية أميال عن زنجبـار ولما كان الوقت متأخراً اتجه ووتـرز وجمعه سوياً في قارب إلى الشاطئ لدعوة بحار مرشد ليقود السفينة إلى مرساها في زنجبار.

وهنا، وبينما الرحلة في آخر مراحلها وبينما كان البحارة يتلقون الأخبار الطيبة مـن أهليهم ويقابلون بالترحيب الشديـد والفرح الجم، حدث ما لم يكـن في الحسبـان، قوبلوا بمأساة وفاة محمد جمعـة الساعد الأيمن لدرنكر والذي كان عماد السفينة الأول.



وقد ذكر درنكر في مذكراته أنه حينما ترك جمعة وقف عن مقعده وسار متجهاً إلى جانب السفينة ووقف يتأمل في الأفق البعيد ، وفجأة وضع يده على حلقه من ألم فيه وأسلم الروح قبل أن يلحق به أحد وسقط من السفينة وغرق في الحال.

وكانت وفاة جمعة مفاجأة للجميع ، ذلك أن حبه كان يغمر قلوب كل البحارة وكل من على السفينة غير أن أحزان البحارة قد خفت واختلطت بفرحة الوصول وربما لم يحزن أحد عليه ، أو يتأثر بموته مثل ما تأثر درنكر الذي عرف المرحوم محمد جمعة عن قرب ، وأدرك ما يمتاز به على غيره من الرجال وكانت الصداقة بينهما متينة ، وقد ظل درنكر يذكرها طول حياته.

وفي الثامن من ديسمبر وقت الظهيرة ألقت (السلطانة) مراسيها في خليج أمتوني أمام قصر السيد سعيد ، وانطلقت من فم أحمد ومن قلبه صيحة منخفضة (الحمد لله) شاكراً الله على سلامة الوصول ، وصاح الجميع حمداً لله كذلك.

لم يكن السيد سعيد في المدينة عند وصول السلطانة إلى زنجبار ، ولذلك اتجه أحمد ودرنكر الى السيد خالد الذي كان مسئولاً عن حكم الجزيرة في ذلك الوقت للتعبير عن ولائهم وبعد أيام وصل الخبر بأن السيد سعيد في طريق العودة ، ولذا لم تواصل السفينة رحلتها إلى مسقط ، ووصل السيد سعيد يوم ١٦ ديسمبر ، وكانت السفينة التي جاء عليها وتسمى (المحبوبة) قد وصلت بعد رحلة امتدت عشرة أشهر . وتقدم أحمد بالتقرير إلى السيد سعيد عن بعثته التي أتمها ، وقدم له الكابتن درنكر.





(٩)

تقويم الرحلة

هـل يمكننا في ضوء أحداث بعثة أحمـد أن نقومها؟ .. هذا هو السؤال بعد ذلك العرض التفصيلي لأحداث الرحلة.

فبالنسبـة لإقامة اتصالات ودية مع الولايات المتحـدة وشعبها ، نجد أن نتائـج الرحلة في هذا المجال كانـت واقعية وناجحـة ، وإن كانت بالنسبة للسيد سعيد غير ذات قيمة كبيرة ، ومن وجهة نظره لم تستغل هذه الصلات على الوجه الأكمل ، إلا أنه من خلال هذه البعثة اكتسب السيد سعيد أمجاداً جديدة ، وكسب لبلده وضعاً خاصاً فقد أصبح أحد الحكام العرب القلائل الذين عرفوا ، كحقيقة واقعة لدى الشعب الأمريكي.

ولقد واصل السيد سعيد محاولاته لدعم العلاقات مع الولايات المتحدة ، فأرسل في عام ١٨٤٤م بعض الهدايا إلى الرئيس الأمريكي تيلون ، ولئن ظهر فيما بعد بعض علامات من سوء التفاهم والخلاف إلا أن ذلك كان عارضاً، ولم يكن ليمحو ما كان قائماً فعلاً من علاقات صداقة بين الحكومتين.

أمـا عـن النتائـج التجارية للرحلـة ، فإنها كانـت أقل قيمة مـن النتائج السياسيـة التي حققتها ، ذلك أنه بعد أن وصل السيد سعيد إلى زنجبار بفترة قصيرة ، وقبيل أن يرى التقرير الذي قدمه أحمد ، تحدث إلى الكابتن درنكر معـبراً عن سروره من النتائج الإقتصادية التي حققتها الرحلة ، وكانت هناك أسباب تدعوه إلى ذلك ، فمعظم البضائع التي أرسلت على ظهر (السلطانة) قـد تم بيعها بأسعار عالية أو معقولـة في نيويورك ، وكانت هذه الأسعار في أغلب الأحوال أكثر بكثير مما يدفعه التجار الأمريكيون الذين يزورون زنجبار أو مسقـط لمثلهـا ، ورغـم أن الأسعار في زنجبار كانـت تتعرض للذبذبات



الشديـدة إلا أنه بمقارنتها بمستويات الأسعـار في ذلك الوقت كانت أسعار نيويورك أفضل منها أو مقاربة لها.

كان القنصل ووترز قد أناب عنه أثناء أجازته التي بدأت في يناير ١٨٤٠م رجلا أمريكياً يدعى ر. ستار باركر الذي كان يعمل سابقاً في مؤسسة سكو فيل وبريتون ، وقد كتب ووترز في خطاب مفصل إلى باركر يوجه نظره إلى أن الصمغ المنظف يجـب ألا يشترى بأكثر من ٣,٥٠ دولاراً للكيس الذي يبلـغ وزنه ٣٥ رطلاً ، أما غير المنظف فـلا ينبغي أن يزيد القيمة عن ٣,٢٥ دولاراً ، هـذا بينما نجـد أن الكيس المماثل من الصمغ قـد بيع في نيويورك بثمانية دولارات للصمغ المنظف ، وخمس دولارات للصمغ غير المنظف.

أمـا بالنسبة لجلود جزيـرة بمبا فقد اشتراها باركـر بأربعة دولارات للفة المكونة من ٢٠ قطعة ، بينما كان يبيعها لقباطنة السفن الأمريكية بمبلغ ست دولارات للفـة ، وقد أثبتت هذه السلعـة نجاحاً كبيراً أيضاً في نيويورك ، إذ بيعت حمولة (السلطانة) من الجلود بسعر ٦,٢٥ دولاراً للفة.

وكانـت السلعة الوحيـدة التي لم تجد مثل هذا الـرواج في نيويورك هي القرنفـل فقد باعها أحمد بمبلـغ ٣,٦ دولار للكيس بينمـا كان سعرها في زنجبـار ٥١,٢ دولاراً لأجـود الأنـواع و ٤,٧٥ دولاراً للأنـواع العادية ويبدو أن ووترز قد عمد إلى رفع أسعار القرنفل حتى يمتنع التجار عن الشراء بالأسعار العالية ، وتبقى كميات كبيرة في المخازن دون تسويق.

أمـا بالنسبة للسلع الأخرى فلم يعثر على قوائم أسعار لها ، وقد أفرغت جميـع السلع التي جاءت بها (السلطانـة) من أمريكا في ميناء زنجبار خلال أسبـوع من وصولها ، وسلمت جميعها إلى تجار السوق المحلية الذين كانوا يعرفون باسم (البانيان) ويـروي درنكر أن بعض هؤلاء المشترين قد تعرض لخسارة كبيرة بلغت في بعض الأحيان ٥٠ في المائة وبخاصة تلك التي أرغم



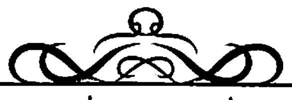
التجار على شرائها ، وكان ذلك نتيجة لحالة الكساد العامة التي كانت عليها السوق في ذلك الوقت.

وفي ضوء الظروف التي أحاطت بالمغامرة يمكن أن ننظر إليها نظرة تقويم خاصة ، فإن تكاليف الرحلة قد بلغت ٦١٧٩ دولاراً خلاف المواد الغذائية التي حملتها السفينة عند المغادرة من مسقط وزنجبار ، والتي لا تعرف تكاليفها بالضبط ، ويمثل هذا المبلغ ٢٤ في المائة من قيمة مبيعات البضائع التي أتت بها (السلطانة) من نيويورك.

ولئن كانت التفاصيل عن أرباح السيد سعيد من تجارته في المحيط الهندي غير معروفة إلا أنه من المؤكد أن ما أنجزته تلك المغامرة إلى أمريكا الشمالية من أرباح كانت أقل بكثير من نسبة الربح التي تتحقق في تجارة المحيط الهندي سواء من الناحية الفعلية أو من الناحية المطلقة ، وذلك إذا أسقطنا من حسابنا أن (السلطانة) ومن عليها من بحارة كانوا قوة معطلة طيلة فترة الرحلة التي قاربت العام الكامل.

وعلى ذلك فإن السيد سعيد ، وإن كان قد عبر بلسانه عن نجاح الرحلة ، إلا أنه لم يجد ما يشجعه على تكرارها بعد ذلك ، وقد أبلغ ووترز عن طريق أحمد عدم رضاه عن الضرائب العالية التي تم تحصيلها في نيويورك.

ولو أمعنا النظر في الأمر لوجدنا أن ذلك يعكس شعور عدم الرضا عن سياسة الحماية الجمركية التي كانت تفرضها الولايات المتحدة وإن كانت (السلطانة) لم تعان منها كثيراً إذ كانت الضرائب التي دفعتها بسيطة نسبياً . وكانت تطبيقاً للمادة الثامنة من المعاهدة بين الولايات المتحدة ومسقط التي عقدت عام ١٨٣٣م، والتي تنص على أن تعامل سفن السيد سعيد في مواني الولايات المتحدة معاملة الدول الأكثر تفضيلاً.

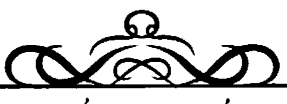


ولقد كانت التعريفة الجمركية في الولايات المتحدة عام ١٨٤٠م تسير على أساس قانون الضرائب على الواردات الصادر في عام ١٨٣٣م والذي جاء تعديلاً للائحة سابقة كانت قد صدرت ١٨٣٢م ونص في اللائحة الجمركية لعام ١٨٣٣م على خفض الجمارك تدريجياً على جميع البضائع بحيث تصبح ٢٠ في المائة على الأكثر عام ١٨٤٢م وبناءاً على ذلك بلغت الجمارك على السجاد عام ١٨٤٠م وهي السنة التي وصلت فيها (السلطانة) إلى نيويورك ٢٣,٥ في المائة من قيمته بصرف النظر عن نوعه.

أما بالنسبة للبن فقد نصت اللائحة عام ١٨٣١م على أن يسدد مبلغ سنت واحد عن كل رطل من البن الذي يرد من شرق رأس الرجاء الصالح وبذلك كانت الجمارك التي تم تحصيلها على كل من السجاد والبن الذي حملته (السلطانة) إلى نيويورك عالية نسبياً.

هذا ويوجد بعض الغموض فيما يتعلق بالمبالغ التي سددت كجمارك على البضائع التي حملتها السلطانة ، ذلك لأن سجل الضرائب الخاص بنيويورك للفترة التي كانت فيها الزيارة قد فقد ، وأن ما أمكن العثور عليه منها وجد مبعثراً هنا وهناك ، ولا يمكن بذلك أن يعطي صورة كاملة ، ولكن على العموم أمكن من هذا الشتات تكوين مجموعة من البيانات المتفرقة ، ومن هذه البيانات أن السفينة سددت ما يعادل ٢٩٠,٧٠ دولارا إلى توكيل السفن وهو رقم شامل لا يمكن أن يتضمن أي تفاصيل.

وفي الوقت نفسه لا توجد أية بيانات من هذا القبيل في كشوف حسابات أحمد ، كما أن مجموعة الأرقام الخاصة بمصاريف الميناء لا تدل على وجود أي نوع من هذه النفقات أو أي رقم يقاربه ، ولكن هناك رقم وحيد يمكن التكهن به وهو مبلغ ٢٨٦,٩٨ دولاراً يمثل ١٠ في المائة من ثمن السجاد. وإن صح هذا الرقم فمعنى ذلك أن السجاد قد قدر بمبلغ ٢٨٧٠ دولاراً.



وإذا كان الرقـم الذي ظهـر في كشف حساب أحمد كحصيلة للسجاد هو ١٤٤٨,٦١ دولاراً فمعنى ذلك أن السجاد قد أدى إلى خسارة كبيرة.

ولعـل الخسارة التي قيـل أنها لحقت بالسجاد تمثـل حقيقة واقعة ولكن بتقـويم نوع السجاد من النموذج المحفوظ منه حالياً في مجموعات المتحف القومـي نجد أنه كان من النوع العـادي ، ولم يكن من النوع الحريري الذي أهديـت قطعة منـه للرئيس ، وعلى ذلك فإن قيمتـه كما ذكرت في كشف الحسـاب تبدو معقولة إن لم يكن مبالغاً فيهـا ، ولعل هذا يرجع إلى احتمال حدوث خطأ متعمد في تسجيل أحمد لإيرادات السجاد في كشف حسابه.

وإذا مـا أخذنـا في الحسبان حصيلة بيع السجاد بعـد خصم المبلغ الذي اعتـبر ضريبة جمركية عليه بنسبة ٢٣,٥ في المائة فيكون ثمن السجاد الذي قدمـت تقديراتـه للجمارك هـو ١٢٠٠ دولاراً هذا ، وعلـى غير المتوقع ، لا يوجـد أي ذكـر لتسديد ضرائب عن البن ، ممـا يؤكد انه لا توجد بيانات حقيقيـة وصحيحة تمثل الواقع ، ولعل الزمن يظهر لنا البيانات الحقيقية التي قد تفسـر مثل هذه التناقضـات الظاهرة ، وكذلك باختفـاء بعض البيانات الحتمية كالضريبة المقررة على البن.

ولقد جاء الوقت الذي أبدى السيد سعيد فيه رغبته في إرسال سفينة إلى مانيلا لإستيراد السكـر ، وطلب إلى الكابتن درنكر أن يقود هذه السفينة ، غـير أن درنكر اعتذر عـن ذلك بحجة أنه جاء في مهمـة لتدعيم العلاقات مـع الولايات المتحدة وبخاصة مع نيويورك وذكـر للسيد سعيد أنه سيغادر إلى وطنـه على أول سفينة عائـدة إلى الوطن ، وذلك إذا لم يقرر السيد سعيد إرسال سفينة أخرى الى أمريكا.

وتنفيـذاً لكلمتـه غادر زنجبار علـى ظهـر السفينة بريـنـدا في يناير عام ١٨٤١م، وبذلـت جهود كبيرة للإبقاء على البحارة الأربعة الذين أتوا على

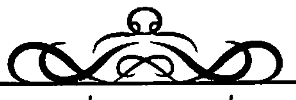


ظهر (السلطانة) ليعملوا في أسطول السيد سعيد غير أن هذه الجهود لم تأت إلا بنجـاح محـدود ، فقد وافق واحد منهم فقط على البقـاء بينما آثر الثلاثة الأخرون العودة إلى وطنهم.

عـاد القنصل ووتـرز إلى زنجبار ، وبقيت التجارة بـين أمريكا وزنجبار في أيـدي تجار ميناء سـالم ، وكان هناك تلميح من جانـب الزنجباريين عن إرسال سفينـة أخرى إلى الولايـات المتحدة مرتين على الأقـل ، كان القصد منها هو استحثاث ووترز على شراء بعض البضائع الخاصة بالحاكم ، ومما يذكر في هذا الصدد أن السيد سعيد استشار القنصل ووترز في ديسمبر ١٨٤١م عن طريق عميله جيرام سيوجي في إرسال السفينة المسماة (الغوالة) إلى الولايات المتحدة محملة بالصمغ ، وترك للقنصل بديلاً عن ذلك شراء كمية من الصمغ فاشتراها.

وقد تكـرر ذلك في نوفمـبر ١٨٤٢م – حيث كـرر السلطان الفكرة بإرسال السفينة (غزالة) إلى نيويورك ، ووصلت الأخبار إلى مسامع ووترز عن طريق أحمد هذه المرة ، فاحتج ووترز بأن الموضوع غير مدروس بدقة وذكـر أنه مشروع سطحي كما يبدو ، ثم وصل إليه بعد ذلك بأسابيع قليلة إقـتراح ووترز بـأن يشتري كمية الصمغ التـي كان السلطان ينوي شحنها على السفينة (غزالة) وبذلك كانت رحلة (السلطانة) هي أول وآخر رحلة تقوم بها سفينة تحمل علم عُمان وزنجبار القرمزي اللون إلى سواحل أمريكا (في تلك الفترة).

أمـا عن الهدايا التـي أرسلها الرئيـس الأمريكي فاي يوريـن إلى السيد سعيـد فقد قبلها السيد سعيـد رغم أن المستر هون عمـدة نيويورك السابق كان يسائل نفسه عما إذا كان السيد سعيد سيقبل الهدايا أم سيرفضها ، وقد جـاء هذا التساؤل نتيجة لنظرة هون إلى ما عوملت به هدايا السيد سعيد في الولايات المتحدة.



ولقد حـازت المرآيا والأسلحـة والشمعدانات الإعجـاب أما الزورق الفاخـر الباهـظ التكاليـف فقد حـاز على إعجـاب أقل بكثير ممـا حازته الأسلحة والمرآيا.

ويرجـع عـدم الإعجاب الكبـير بالـزورق البخـاري إلى أن البحارة لم يكونـوا مدربين على تسيير مثل هذه القوارب البخارية من قبل ولذا تسببوا في انقلابـه من أول مرة ، وتعرض راكبوه مـن أقارب السيد سعيد للغرق ، وقـد أدى ذلـك إلى الظن بأن هناك عيب في الـزورق نفسه مما جعل السيد سعيـد يأمر بأن يوضع فوق السفينـة الراسية المسماة (شاه غلام) حيث بقي سنين طويلة بليت فيـه كل زخارفه واختفت كل الأغلفة الفضية من قوائمه وجوانبه وقواعد صواريه.

وأراد السيد سعيد في وقت من الأوقات إهدائه إلى القنصل ووترز ولكن ووتـرز رفض بشدة أن يقبلـه ، وكذلك فشلت محاولات أخرى لبيعه لأحد المواطنـين ، ولكن أخيراً في مايو ١٨٤٢م نجح السيد سعيد في إستبداله من القنصل البريطاني هامرتون بقارب ذي ستة مجاديف لم يكن يساوي في ذلك الوقت أكثر من مائتي دولار.

أمـا بالنسبة لهدايا السيد سعيد التي أرسلها مع أحمد فقد اعتبرت هدايا لحكومـة الولايات المتحـدة ، ومعظمها مازال موجـوداً حتى وقتنا الحاضر وكانـت قد أودعـت عام ١٨٤٣م في دار براءات الاخـتراع القديمة التابعة لوزارة الخزانة ، ثم نقلت ثانية في مارس عام ١٨٨٧م إلى متحف الولايات المتحـدة القومي حيث أصبحت تكـون جزءاً من أجمل مقتنيات المتحف ، إلا أن السيف اختفى كما أن زجاجات العطر قد تبخرت.

وقـد حدث مرتـين أن اختفت بعض هذه الهدايـا مرة في عام ١٨٤٨م والثانية في الفترة من ١٨٨٧م إلى ١٨٩٢م حيث يبدو أنها سرقت ، وبقيت



السجادة الحريرة محفوظة في مجموعة انجليكا سنجليتون فان يورين ، حرم الرئيس ، وهي المجموعة التي تضم أيضاً أرديتها الثمينة ، وكتب على هذه السجادة خطأ أنها مهداه من الرئيس إلى زوجته.

استقر أحمد بن نعُمان في خدمة السيد سعيد ، وكانت رحلته إلى نيويورك سبباً في ترقيته إلى أعلى المراتب ، ورغم أنه كان في مسقط وزنجبار لا يخرج عن كونه كاتباً للسيد سعيد ، إلا أن ما لقيه من مجد وتبجيل في الولايات المتحدة جعله لا يدخر وسعاً في التحدث عن ذلك في كل مكان وكل وقت.

وبتغلغل النفوذ البريطاني في زنجبار ، أصبح أحمد في نظر القنصل البريطاني هامرتون رائداً فيما أسماه بالإتصال بالجانب الأمريكي .

وقد كتب هامرتون في فبراير ١٨٤٢م قائلاً: (أن نمط الاتصالات بين الإمامة والقنصل الأمريكي ووترز ، والجانب الأمريكي بصفة عامة قد تم من خلال أحد الكتبة في حكومة الإمام يدعى أحمد بن نعُمان ، وهو الذي ذهب على ظهر السفينة سلطانة إلى أمريكا ، وهو الذي يقود كل من يشيع عنا أننا شعب أقل من الشعب الأمريكي).

وكان هامرتون يعتقد أن الجانب الأمريكي كان يحاول أن يستحث السيد سعيد ليتخذ خطوات مضادة للموقف البريطاني ، بإخباره عن كل تحركات بريطانيا مثل موقفها من أفغانستان وغيره ، أما عن الصداقة بين أحمد والقنصل ووترز فقد أثمرت كثيراً ، ذلك أن ووترز كتب إلى خلفه في زنجبار بعد أن غادرها عام ١٨٤٤م يقول : (عليك بمقابلة الكابتن حسن بن إبراهيم وأحمد بن نعُمان وغيرهم من أصدقائنا القدامى كما فعلت أنا حينما كنت هناك).

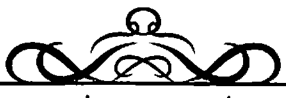


وقـد فعل القنصل الجديد ما نصح به ، وظـل أحمد من الزوار الدائمين الذيـن يترددون علـى مؤسسة (بنجري) وكثـيراً ما كان يسـأل عن صحة صديقـه القديم ووترز أثناء هذه الزيـارات ، وكان يعرض فيها خدماته على هذا الشاب الجديد.

ولما تـوفي السيد سعيد احتفـظ الحاكم الجديد السيـد ماجد بأحمد كسكرتـيره الخاص ثم ترك أحمـد الخدمة عـام ١٨٥٨م ، وفي أكتوبر عـام ١٨٦٠م أي بعد ذلـك بسنتين كتب ريجي يقول : إن أحمد أصبح ضعيـف الصحة ، غير قادر على إعطاء المعلومـات وتوفي إلى رحمة الله عـام ١٨٦٩م ووضـع على قبره حجر نقش عليه اسمـه وتاريخ دفنه في المقبرة العامة بزنجبار.

وهنالـك في مكتب لجنة الفنون بمبنى بلدية نيويورك توجد لوحة أصلية معلقـة على الجدار طولهـا ٤٢ بوصة وعرضها ٣٦ بوصـة ، تشتمل على منظر لأحمد رسمه الفنان مونى كما توجد نسخة منها بريشة الرسام نفسه معلقـة في متحف بيبـودي في سالم بولاية ماساشوستس وهذه اللوحة غير مسجلـة ضمـن قوائم لوحـات موني ، ويـرى البعض أن هـذه النسخة قد رسمـت ليأخذها أحمد معه إلى زنجبار ، وكانـت مسز وليام ماك مولين قد أهدتها للمتحف في سالم ، وكان زوج مسز وليام قد عمل سنين طويلة مديراً لأعمـال مؤسسة بنجري في زنجبار وربما يكـون قد أخذها من ورثة أحمد خلال تلك الفترة التي عمل فيها بزنجبار.

أما صورة السيد سعيد فإنها هي الصورة الوحيدة التي رسمت له وكان قـد رسمها الفنان هنري بلوس لينش ، وهي اللوحة المعلقة حاليا في متحف بيبو دي في سالم.



أمـا (السلطانة) فقـد عادت لتحتل مكانها ضمـن أسطول السيد سعيد ثـم أرسلت في عام ١٨٤٢م إلى إنجلترا كسفينـة حربية تحمل مبعوثاً خاصاً مـن السيد سعيد إلى الملكة فيكتوريا ، ومعه هدايا تضم بعض الخيول العربية المشهـورة ، وقامـت بهذه الرحلـة أيضاً تحت قيادة قبطـان أمريكي يسمى ويلسـون كان صهـراً لووتـرز، وفي إنجلـترا أصلحت في حوض البحرية البريطانية الكائن في وولويتش.

وعنـد عودتها إلى زنجبار كانـت في أحسن حالاتها ، وظلت تعمل حتى وقعت لها حادثة في تاريخ غير معروف ولكنه في الأغلب بعد عام ١٨٥٥م، فقـد جنحت وهي عائدة من الهند أمام جزيـرة وارين على مرمى النظر من جزيرة بمبا ولم يمكن إنقاذها وغرقت...



(١٠)
خاتمة

استمـرت العلاقات بين سلطنة عُمان وتوابعهـا وبين الولايات المتحدة علـى أحسن ما يرام منذ عهد السيد سعيـد ومبعوثه أحمد بن نعُمان ، وقد كلـف سعيد بن خلفان فيما بعد بالقيـام بأعمال القنصلية الأمريكية في عام ١٨٤٣م، إلا أن سلطـان مسقـط لم يعترف به ، وظـل الوضع كذلك بدون قنصليـة حتى أعيد فتح القنصلية الأمريكية في مسقط عام ١٨٨٠م، وظلت كذلك حتى سنة ١٩١٥م.

وفي تلـك الفترة كان القنصل الأمريكي المقيـم في اليمن يقوم بزيارات للسلطـان السيـد سعيد بن تيمـور الحفيد الثاني للسيد سعيـد ، وذلك على الرغـم من أنه كان غير معتمد لدى سلطنة عُمان وفي ديسمبر عام ١٨٥٨م عقدت معاهدة صداقـة وإتفاقية إقتصادية جديدة مع إقامة علاقات قنصلية مـع السلطنة ، وحتـى ذلك التاريخ كانـت المعاهدة المعمـول بها هي التي وقعت عام ١٨٣٣م.

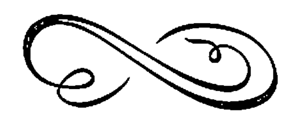
وفي عـام ١٨٦١م انفصلـت زنجبار عـن مسقط وأصبحـت كل منهما وحدة سياسية قائمة بذاتها ، وأصبحت زنجبار محمية بريطانية وأخذت تخطو خطواتهـا نحو الحكم الذاتي ، وفي عـام ١٨٧٩م قبل سلطان زنجبار العمل بمعاهدة عام ١٨٣٣م كأساس للعلاقات بين الولايات المتحدة وزنجبار.

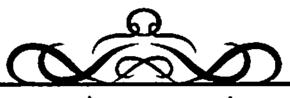
ثـم أغلقت القنصليـة الأمريكية التـي فتحها ووتـرز في زنجبار في عام ١٩١٥م، وأخـيراً في سبتمبر ١٩٦١م أعيد فتحها وحضر ممثل أمريكي إلى زنجبار مرة ثانية في عهد السلطان السيد عبدالله بن خليفة الذي كان كقريبه في مسقط حفيداً للسيد سعيد.



مضـى أكثر من قرن وربع على رحلة أحمـد إلى زنجبار ، وتغيرت أنماط الحكم والسلطة في العالم العربي خلال هذه الفترة الطويلة ، وانكمش ملك السيـد سعيد الذي كان ممتداً في شرقي أفريقيه وبدأ الأمريكيون خلال تلك الفـترة يقيمون علاقات صداقة وصلات متعددة مع الحكومات والشعوب العربيـة ، ولئن كانت الشخصية العربية لها عندنـا نحن الأمريكيين تكريماً واحتراماً فإن أحمد بن نعُمان ورفاقه قد كان لهم الفضل في وضع البصمات الأولى للتعـرف علـى الطبيعة العربية الطيبة البسيطـة ، على الأقل في وسط جزء من الرأي العام الأمريكي.

ولعل هذه الصفحات - كما نأمل - تكشف عن جزء من الماضي ستاراً أسدله الزمن على رحلة أحمد بن نعُمان ، ولعلها تذكرنا بما قد نسيناه - مما يستحق الذكر - من تلك الرحلة إلى شواطئ أمريكا.




الفهرس








بحمد الله



